سكرات الموت وشدته

تأليف صلاح الدين محمود

دار الغد الجديد
المنصورة



تأليف

صلاح الدين محمود







القاهرة - المنصورة

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م



القاهرة: ١٢ ش درب الاتراك خلف الجامع الأزهر
المنصورة: ش عبد السلام عارف أمام جامعة الأزهر

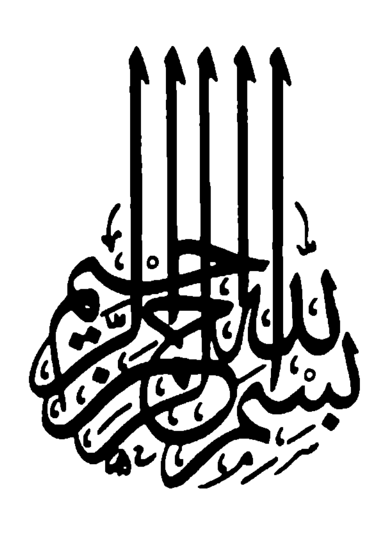
٠٠٢٠٥٠ /٢٢١٦٨٩٨
ت فاكس/ ٠٠٢٠٥٠٢٢٩٤٧٦٦
٠٠٢٠١٠٥٥٠٢٨٢٨
صندوق بريد: 35111

EMAIL: DAR-ALGHAD@YAHOO.COM

رقم الإيداع : ١٠٦٧٤ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولى I.S.B.N.

977-6050-74-3


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١] .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار .

ثم أما بعد :

قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] يموت كل صغير وكبير يموت كل أمير ووزير يموت كل عزيز وحقير يموت كل غنى وفقير يموت كل نبى وولى يموت كل نجى وتقى يموت كل زاهد وعابد يموت كل مقر وجاحد يموت كل صحيح وسقيم يموت كل مريض وسليم . كل نفس تموت غير ذى العزة والجبروت .

أخى : لا تكف دمعك حتى ترى فى المعاد ربحك ولا تكحل عينك بنوم حتى ترى حالك بعد اليوم ولا تبت وأنت مسرور حتى تعلم عاقبة الأمور .

أخى : إن الموتى لم يبكوا من الموت ولكنهم يبكون من حسرة الفوت . فاتتهم والله دار لم يتزودوا منها ودخلوا دارًا لم يتزودوا لها فأى ساعة مرّت على من مضى؟ وأى ساعة بقيت علينا ؟

أخي : إن الآمال تطوى والأعمار تفنى والأبدان تحت التراب تبلى وإن الليل والنهار يتراكضان كتراكض البريد يقربان كل بعيد ويبليان كل جديد وفى ذلك ما يلهى عن الشهوات ويسلى عن اللذات ويرغب فى الباقيات الصالحات .

أخي انتبه . . . فالدنيا أضغاث أحلام ودار فناء ليست بدار مقام ستعرف وتفهم نصحى لك بعد أيام .

وما غاب عنك ستراه على التمام إذا كشف الغطاء عنك صار بصرك حديد وهناك تندم ولات ساعة الندم .

وهذا كتابى إليك : « انتبه . . . الموت قادم ».

أرجو الله أن يوافق قلبا حاضراً وعقلاً واعياً فتنتفع بهذه الكلمات فتقف وقفة صدق مع النفس وتنظر أراحل أنت أم مقيم وإذا كنت راحلاً فإلى أين المصير ؟ أإلى جنة أم إلى نار وأحضر قلبك عند قراءة هذه الموعظة فرحم الله عبداً اقترف فاعترف ووجل فعمل وحاضر فبادر وعُمِّر فاعتبر وأجاب فناب ورجع فتاب وتزود لرحيله وتأهب لسبيله .

وكتبه

أبو أنس

صلاح الدين محمود السعيد

النهى عن تمنى الموت إلا عند خوف ذهاب الدين

اعلم أخى: أن الإسلام نهانا عن تمنى الموت والدعاء به حتى يزداد المحسن إحسانا ويتوب ويرجع المسىء عن غيّه.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :« لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه فإن كان لا بد فاعلاً فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى » [رواه البخارى ومسلم] .

وعن قيس بن أبى حازم:« دخلنا على خباب نعوده وقد اكتوى سبع كيات فقال: إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا وإنا أصبنا مالا نجد موضعًا إلا التراب ولولا أن النبى ﷺ، نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به ثم أتيناه مرة أخرى وهو يبنى حائطا له فقال: **إن المسلم ليؤجر فى كل شىء ينفقه إلا فى شىء يجعله فى هذا التراب** » . [رواه البخارى].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لن يُدخِل أحدًا عمله الجنة ». قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة فسدّدوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً وإما مسيئاً **فلعله أن يستعتب** » [رواه البخارى].

وروى عن سهل بن عبد الله التسترى أنه قال:«لا يتمنى أحدكم الموت إلا ثلاثة: رجل جاهل بما بعد الموت أو رجل يعز من أقدار الله تعالى عليه أو مشتاق محب للقاء الله عز وجل » [التذكرة ص ١٠] .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : ما من مؤمن إلا والموت خير له فمن لم يصدقنى فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ (١٩٨) ﴾ [آل عمران] .

وقال تعالى: ﴿ **وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ** ﴾[آل عمران:١٧٨] .

وقال حيان بن الأسود :الموت صبر يوصل الحبيب إلى الحبيب. [التذكرة ص١١].

والأحاديث السابقة فيها إشارة إلى أن المعنى فى النهى عن تمنى الموت والدعاء به هو انقطاع العمل بالموت فإن الحياة يتسبب منها العمل والعمل يحصل زيادة الثواب ولو لم يكن إلا استمرار التوحيد فهو أفضل الأعمال ولا يرد على هذا أنه يجوز أن يقع الارتداد والعياذ بالله تعالى عن الإيمان لأن ذلك نادر والإيمان بعد أن تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد وعلى تقدير وقوع ذلك .وقد وقع لكن نادراً .فمن سبق فتعجيله بطلب الموت لاخير له فيه .ويؤيده حديث أبى أمامة : أن النبى ﷺ قال لسعد :« يا سعد إن كنت خلقت للجنة فما طال من عمرك أو حسن من عملك فهو خير لك » [أخرجه بسند لين] .ووقع فى رواية همام عن أبى هريرة عند أحمد ومسلم « وأنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا » واستشكل بأنه قد يعمل السيئات فيزيده عمره شراً وأجيب بأجوبة : أحدها حمل المؤمن على الكامل وفيه بعد والثانى أن المؤمن بصدد أن يعمل ما يكفر ذنوبه إما من اجتناب الكبائر وإما من فعل حسنات أخر قد تقاوم بتضعيفها سيئاته وما دام الإيمان باق فالحسنات بصدد التضعيف والسيئات بصدد التكفير .

والثالث يقيد ما أطلق فى هذه الرواية بما وقع فى رواية الباب من الترجى حيث جاء بقوله « لعله » .والترجى مشعر بالوقوع غالباً لا جزما فخرج الخبر مخرج تحسين الظن بالله وأن المحسن يرجو من الله الزيادة بأن يوفقه للزيادة من عمله الصالح وأن المسىء لا ينبغى له القنوط من رحمة الله ولا قطع رجائه أشار إلى ذلك شيخنا فى [شرح الترمذى] ويدل على أن قصر العمر قد يكون خيرًا للمؤمن حديث أنس الذى فى أول الباب « وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » .وهو لا ينال فى حديث أبى هريرة :« إن المؤمن لا يزيده عمره إلا خيرا » .إذا حمل حديث أبى على الأغلب ومقابله على النادر [فتح البارى ج١٠ ص١٣٦] .

واعلم أنه يجوز تمنى الموت والدعاء به عند خوف ذهاب الدين أو عند الفتنة . كما قالت مريم عليها السلام :﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) ﴾ [مريم] .

وكما قال يوسف عليه السلام : ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾[يوسف].

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول ياليتني مكانه » [رواه البخاري ومسلم] .

وذلك سيكون لشدة ما ينزل بالناس من فساد الحال في الدين وضعفه وخوف ذهابه لا لضرر ينزل بالمرء في جسمه أو غير ذلك وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اللهم قد ضعفت قوتي وكبرت سني وانتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مضيع ولا مقصر فما جاوز ذلك الشهر حتى قبض رحمه الله [التذكرة ص ١٢] .

وذكر أبو عمر بن عبد البر في التمهيد والاستذكار من حديث زاذان أبي عمر عن عليم الكندري قال: كنت جالساً مع عابس الغفاري على سطح فرأى ناساً يتحملون من الطاعون فقال: يا طاعون خذني إليك يقولها ثلاثاً .

فقال عليم : لم تقول هذا ؟ ألم يقل رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت فإنه عند ذلك انقطاع عمله ولا يرد فيستعتب » . فقال عابس : أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: « بادروا بالموت ستاً : إمرة السفهاء وكثرة الشرط وبيع الحكم واستخفافاً بالدم وقطيعة الرحم ونشئاً يتخذون القرآن مزامير يقدمون الرجل ليغنيهم بالقرآن وإن كان أقلهم فقهاً » [رواه أحمد والحاكم صحيح الجامع [٢٨١٢] .

وقد قال عبد الله بن مسعود : « سيأتي عليكم زمان لو وجد أحدكم الموت يباع لاشتراه » . وقد قال الشاعر :

وهذا العيش ما لا خير فيه ألا موت يباع فأشتريه

قال ابن بطال : تغبط القبور وتمني الموت عند ظهور الفتن إنما هو خوف ذهاب الدين بغلبة الباطل وأهله وظهور المعاصي والمنكر انتهى .

وليس هذا عاماً في حق كل أحد وإنما هو خاص بأهل الخير وأما غير هم فقد يكون لما يقع لأحدهم من المصيبة في نفسه وأهله أو دنياه وإن لم يكن في ذلك شيء يتعلق بدينه ويؤيده ما أخرجه في رواية أبي حازم عن أبي هريرة عند مسلم « لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: ياليتني مكان صاحب

هذا القبر وليس به الدين إلا البلاء » وذكر الرجل فيه للغالب وإلا فالمرأة يتصور فيها ذلك والسبب فى ذلك ما ذكر فى رواية أبى حازم أنه [يقع البلاء والشدة حتى يكون الموت الذى هو أعظم المصائب أهون على المرء فيتمنى أهون المصيبتين فى اعتقاده] وبهذا جزم القرطبى .وذكره عياض احتمالاً .وأغرب بعض شراح [المصابيح] فقال: المراد بالدين هنا العباد والمعنى أنه يتمرغ على القبر ويتمنى الموت فى حالة ليس التمرغ فيها من عادته وإنما الحامل عليه البلاء .وتعقبه الطيبى بأن حمل الدين على حقيقته أولى أى ليس التمنى والتمرغ لأمر أصابه من جهة الدين بل من جهة الدنيا وقال ابن عبد البر .ظن بعضهم أن هذا الحديث معارض للنهى عن تمنى الموت وليس كذلك وإنما فى هذا أن هذا القدر سيكون لشدة تنزل بالناس من فساد الحال فى الدين أو ضعفه أو خوف ذهابه لا لضرر ينزل فى الجسم ، كذا قال وكأنه يريد أن النهى عن تمنى الموت هو حيث يتعلق بضرر الجسم وأما إذا كان لضرر يتعلق بالدين فلا. وقد ذكره عياض احتمالاً أيضا وقال غيره : ليس بين هذا الخبر وحديث النهى عن تمنى الموت معارضة لأن النهى صريح وهذا إنما فيه إخبار عن شدة ستحصل ينشأ عنها هذا التمنى وليس فيه تعرض لحكمه وإنما سيق للإخبار عما سيقع البلاء] فإنه سيق مساق الذم والإنكار وفيه إيماء إلى أنه لو فعل ذلك بسبب الدين لكان محمودا ويؤيده ثبوت تمنى الموت عند فساد أمر الدين عند جماعة السلف قال النووى : لا كراهة فى ذلك ، بل فعله خلائق من السلف منهم عمر بن الخطاب وعيسى الغفارى وعمر بن عبد العزيز وغيرهم .ثم قال القرطبى : كأن فى الحديث إشارة إلى أن الفتن والمشقة البالغة ستقع حتى يخف أمر الدين ويقل الاعتناء بأمره ولا يبقى لأحد اعتناء إلا بأمر دنياه ومعاشه نفسه وما يتعلق به ومن ثم عظم قدر العبادة أيام الفتنة كما أخرج مسلم من حديث معقل بن يسار رفعه « العبادة فى الهرج كهجرة إلى».ويؤخذ من قوله: « حتى يمر الرجل بقبر الرجل» أن التمنى المذكور إنما يحصل عند رؤية القبر وليس ذلك مراداً بل فيه إشارة إلى قوة هذا التمنى لأن الذى يتمنى الموت بسبب الشدة التى تحصل عنده قد يذهب ذلك التمنى أو يخف عند مشاهدة القبر والمقبور فيتذكر هول المقام فيضعف تمنيه فإذا تمادى على ذلك دل على تأكد أمر تلك الشدة عنده حيث لم

يصرفه ما شاهده من وحشة القبر وتذكر ما فيه من الأهوال عن استمراره عن تمنى الموت .وقد أخرج الحاكم من طريق أبى سلمة قال: « عدت أبا هريرة فقلت :اللهم اشف أبا هريرة فقال: اللهم لا ترجعها إن استطعت يا أبا سلمة فمت والذى نفسى بيده ليأتين على العلماء زمان الموت أحب إلى أحدهم من الذهب الأحمر وليأتين أحدهم قبر أخيه فيقول : ليتنى مكانه] .وفى كتاب الفتن من رواية عبد الله بن الصامت عن أبى ذر قال :[يوشك أن تمر الجنازة فى السوق على الجماعة فيراها الرجل فيهز رأسه فيقول: يا ليتنى مكان هذا .قلت يا أبا ذر إن ذلك أمر عظيم . قال: أجل [فتح البارى ج٣ص٨١].

ذكر الموت والاستعداد له

جدير بمن الموت مصرعه والتراب مضجعه والدود أنيسه ومنكر ونكير جليسه والقبر مقره وبطن الأرض مستقره والقيامة موعده والجنة والنار مورده ألا يكون له فكر إلا فى الموت ولا ذكر إلا له ولا اهتمام إلا به ولا حول إلا حوله ولا انتظار ولا تربص إلا له وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى ويراها فى أهل القبور فإن كل ما آت قريب والبعيد ما ليس بآت ولن يتيسر الاستعداد للشىء إلا عند تجدد ذكره على القلب ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له والنظر فى المنبهات عليه فاحذر الموت فإنه الخطب الأفظع والأمر الأشنع والكأس التى طعمها أكره وأبشع .الهادم للذات والأقطع للراحات والأجلب للكريهات .

قال الإمام القرطبى :

تفكر يا مغرور فى الموت وسكرته وصعوبة كأسه ومرارته فيا للموت من وعد ما أصدقه ومن حاكم ما أعدله كفى بالموت مقرحاً للقلوب ومبكياً للعيون ومفرقاً للجماعات وهازماً للذات وقاطعاً للأمنيات فهل تفكرت يا ابن آدم فى يوم مصرعك وانتقالك من موضعك وإذا نقلت من سعة إلى ضيق وخانك الصاحب والرفيق وهجرك الأخ والصديق وأخذت من فراشك وغطوك من بعد لين اللحاف بتراب ومدر فياجا مع المال والمجتهد فى البنيان ليس لك والله إلا الأكفان بل هى والله للخراب والذهاب وجسمك للتراب والمآب .فأين الذى جمعته من المال؟ فهل أنقذك من الأهوال ؟ كلا بل تركته إلا من لا يحمدك وقدمت بأوزارك على من لا يعذرك [التذكرة ١/١٦] .

كان يزيد الرقاشي يقول لنفسه: ويحك يا يزيد من ذا يصلى عنك بعد الموت؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ من ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ؟ ثم يقول : أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقى حياتكم ؟ من الموت طلبه والقبر بيته والتراب فراشه والدود أنيسه وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله ؟

ثم يبكى حتى يسقط مغشياً عليه .

وقال التيمى: شيئان قطعا عنى لذة الدنيا : ذكرت الموت. وذكر الموقف بين يدى الله تعالى وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يجمع العلماء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة فيبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة .وقال أبو نعيم : كان الثورى إذا ذكر الموت لا يُنتفَع به أياماً .فإن سئل عن شيء قال: لا أدرى لا أدرى.[التذكرة ص ١٥].

وقال الإمام الغزالى : لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديراً بأن يتنغص عليه عيشة ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقاً بأن يطول فيه فكرة ويعظم له استعداده لا سيما وهو فى كل نفس بصدده .

كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك لا تدرى متى يغشاك [الاحياء ٤/ ٤٤٥] .

كم مأخوذ على الزلل ختم له بسوء العمل نزل به الموت فيا هول ما نزل فأسكنه القبر فكأن لم يزل . وهو مصير الغافل لو غفل .﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ [الحجر:٣] .

كم نائم على فراش التقصير ومغتر بعمر قصير .صاح به فلم يبال النذير فاستلبه الخطأ والتبذير .فلما أحس البأس ثارت من نيران الندم شغل ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ ﴾ .

كم مستحل شراب الهوى .شرب من كأسه حتى ارتوى .بينما هو على جادة إعراضه هوى .فما نفعه عند الموت ما حوى ولا ما شرب ولا ما أكل .﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ ﴾ .

ولا تغتر بنعيم القوم فإن غدا بعد اليوم . دعهم فيما يؤثر فيهم اللوم وهل ينفع التحريك ميتا هل ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ ﴾ .

يجمعون الحطام بكسب الحرام ويتفكرون فى نصب شرك الآثام والناس نيام

يرقدون فى الليل وفكرهم فى الويل طويل لا ينام والأقدام فيما لا يحل إقدام تسعى فى هواها سعى الرمال . ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ .

ما عندهم خبر الساعة والعمر يمضى ساعة فساعة .خسروا فى أشرف تجارة وأغلى بضاعة يتثاقلون تثاقل عطارد فى الطاعة فإذا لاح الذنب ذهل .﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ ﴾ .

كيف بكف يعيا ويعيث كيف نحذرها شر الخطايا وكل فعلها خبيث كيف فخوفها قليل الذنب ولسان الحال يستغيث أنا الغريق فما خوفى من البلى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ ﴾ .

عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :« أكثروا من ذكر هازم اللذات». [رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة صحيح الجامع ١٢١٠] .

قال الغزالى :« معناه تعصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة والغفلة تدعو إلى الانهماك فى شهوات الدنيا. «الإحياء ٤/ ٣٣٤ » .

قال عمر بن عبد العزيز : إذا كنت فى سعة من العيش وأردت أن يضيق عليك فاذكر الموت وإذا كنت فى ضيق من العيش وأردت أن يتسع عليك فاذكر الموت .نعم الموت هو الحقيقة الباقية .

قال الدقاق رحمه الله : من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء : تعجيل التوبة وقناعة القلب ونشاط العبادة .

ومن نسى الموت عوقب بثلاثة أشياء : تسويف التوبة وترك الرضا بالكفاف والتكاسل فى العبادة « التذكرة ١/ ١٧ » .

أخرج ابن أبى شيبة عن عون بن عبد الله قال: ما أحد ينزل الموت حق منزلته

لا من مد غداً ليس من أجله .كم من مستقبل يوماً لا يستكمله وراح غداً لا يبلغه نك لو ترى الأجل ومسيره لأبغضت الأمل وغروره .

وعن ابن حازم قال: انظر الذى تحب أن يكون معك فى الآخرة فقدمه اليوم وانظر الذى تكره أن يكون معك ثم فاتركه اليوم .كل عمل كرهت الموت من أجله فاتركه ثم لا يضرك متى مت .

وأخرج ابن أبى الدنيا : عن صفية أن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها القسوة يعنى فى قلبها فقالت عائشة : ذكر الموت يرق قلبك .

كان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والآخرة والقيامة ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة .

وأخرج نعيم بن حماد عن عبد الله بن مسعود قال:

كفى بالموت واعظاً وكفى باليقين غنى وكفى بالعبادة شغلاً . [الزهد لابى نعيم ص ٣٧ ، ٣٨].

بكى أبو هريرة فى مرضه . فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال: أما إنى لا أبكى على دنياكم هذه ولكن أبكى على بعد سفرى وقلة زادى وإنى أمسيت فى صعود مهبطة على جنة ونار لا أدرى إلى أيتها يؤخذ بى .

قال على بن أبى طالب : ألا أخبركم بأعظم الحسرات رجل جمع درهما إلى درهم وقيراطاً إلى قيراط ثم مات وورثه غيره فوضعه فى حقه وأمسكه عن حقه.

كلام مختصر وجيز قد جمع التذكرة وأبلغ فى الموعظة فإن من ذكر الموت حق ذكره نغص عليه لذته الحاضرة ومنعه من تمنيها فى المستقبل وزهَّدَهُ فيها كان منها يؤمل ولكن النفوس الراكدة والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ وتزويق الألفاظ وإلا ففى قوله عليه الصلاة والسلام :« أكثروا من ذكر هازم اللذات »مع قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾[آل عمران:١٨٥] .ما يكفى السامع لـه ويشغـل النـاظر فيه .

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته   يبقى الإله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يومًا خزائنه   والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له   والإنس والجن فيما بينهما ترد
أين الملوك التى كانت لعزتها   من كل أوب إليها وافد يفد؟
حوض هنالك مورود بلا كذب   لا بد من ورده يومًا كما وردوا

إذا ثبت ما ذكرنا فاعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدنيا الفانية .والتوجه فى كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتى ضيق وسعة ونعمة ومحنة فإن كان فى حال ضيق ومحنة فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه فإنه لا يدوم والموت أصعب منه أو فى حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها والسكون إليها .

قال الغزالى رحمه الله : اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم ومن لم يذكره ليس يذكره بقلب فازغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فليرجع ذكر الموت فى قلبه فالطريف فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذى هو بين يديه كالذى يريد أن يسافر إلى مفازة (١) مخطرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه وأنجع (٢) طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قلبه فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم فى مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاؤهم فى قبورهم وكيف أرملو نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم فمهما تذكّر رجلٌ رجلاً وفصل فى قلبه حاله وكيفية موته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الأسباب

(١) المفازة : صحراء مهلكة .   (٢) أنجع : أفضل وأحسن وأنجح .

وركونه إلى القوة والشباب وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عمًا بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه وكيف يضحك وقد أكل التراب أسنانه وكيف كان يدبر لنفسه مالا يحتاج إليه إلى عشر سنين فى وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به حتى جاء الموت فى وقت لم يحتسبه فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار فعند ذلك ينظر فى نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم .

من أحوال وأقوال الصالحين فى ذكر الموت :

قال إبراهيم التيمى : شيئان قطعا عنى لذة الدنيا : ذكر الموت والوقوف بين يدى الله عز وجل .

وقال كعب : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها .

وقالت صفية رضي الله عنها : أن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت: أكثرى ذكر الموت يرق قلبك .

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء : عظنى فقال: لست أول خليفة تموت قال: زدنى . قال : ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك . فبكى عمر لذلك .

وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبراً فى داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت .وكان يقول : لو فارق ذكر الموت قلبى ساعة واحدة لفسد . [بستان الواعظين ص ١٥٢] .

نظر عمرو بن العاص إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين فقيل له: هذا شىء لم تكن تصنعه ؟ فقال: ذكرت أهل القبور وما حِيل بينهم وبينه فأحببت أن أتقرب إلى الله بهما .

وقال أبو ذر : ألا أخبركم بيوم فقرى ؟ يوم أوضع فى قبرى .

وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور فقيل له فى ذلك فقال: أجلس إلى قوم

يذكرونى معادى وإذا قمت لم يغتابونى .

وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلاً ويقول : يا أهل القبور ما لى إذا دعوتكم لا تجيبونى : ثم يقول : حيل والله بينهم وبين جوابى وكأنى بى أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر .

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه : يا فلان لقد أرقت الليلة أتفكر فى القبر وساكنه إنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة أيام في قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام ويجرى فيه الصديد وتخترقه الديدان مع تغيُّر الريح وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة وكان يزيد الرقاشي يقول : أيها المقبور فى حفرته والمتخلى فى القبر بوحدته المستأنس فى بطن الأرض بأعماله ليت شعري بأي أعمالك استبشرت وبأى إخوانك اغتبطت ثم يبكى حتى يبل عمامته ثم يقول: استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط والله بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى .

وقال حاتم الأصم : من مرّ بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدْعُ لهم فقد خان نفسه وخانهم .

وكان بكر العابد يقول: يا أماه ليتك كنت بى عقيما إن لابنك فى القبر حبسًا طويلا ومن بعد ذلك منه رحيلا .

وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول : ما أحسن ظواهرك إنما الدواهى بواطنك .

وكان عطاء السلمى إذا جن عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول : يا أهل القبور متُّم فواموتاه .وعاينتم أعمالكم فوا عملاه ثم يقول: غداً عطاء فى القبور . غدا عطاء فى القبور . . . فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح .

وكان الربيع بن خثيم قد حفر فى داره قبراً فكان إذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ما شاء الله ثم يقولك ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا

تَرَكْتُ ﴾[المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠] .

يرددها ثم يرُد على نفسه . يا ربيع قد رجعت فاعمل .

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل عليّ فقال: يا ميمون هذه قبور آبائى بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم وعيشهم . أما تراهم صرعى قد خلت بهم المثلات : «العقوبات» . واستحكم فيهم البِلَى وأصابت الهوام مقيلاً « المقيل » من القيلولة أى سكنت الهوام الحشرات واستراحت فى أجسادهم بعد موتهم فى أبدانهم ؟ ثم بكى وقال: والله ما أعلم أحدًا نُعِّم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن عذاب الله .

وقال ثابت البنانى : دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول: يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها فكم من نفس مغمومة فيها .

وروى عن مطرف ابن أبى بكر الهذلى قال: كانت عجوز فى عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المحراب وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلغنى أنها عوتبت فى كثرة إتيانها المقابر فقالت :إن القلب القاسى إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى وإنى لآتى القبور فكأنى أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتعفره وإلى تلك الأجسام المتغيرة فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للأنفس وأشد تلفها للأبدان .

ودخل فقيه على عمر بن عبد العزيز فتعجب من تغير صوته لكثرة الجهد والعبادة فقال له: يا فلان لو رأيتنى بعد ثلاث وقد أدخلت فى قبرى وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين وتقلصت الشفتان عن الأسنان وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم ونتأ البطن فعلا الصدر وخرج الصُّلب من الدُّبُر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن [الروض الفائق ص٣٥].

موقف الناس من الموت

اعلم أن المنهمك فى الدنيا المكب على غرورها المحب لشهوتها يغفل لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره وإذا ذكر به كرهه ونفر منه .أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⑧ ﴾[الجمعة] .

ثم الناس إما منهمك، وإما تائب مبتدئ .أو عارف منته :

أما المنهمك :فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره للأسف على دنياه ويشتغل بمذمّته وهذا يزيده ذكره الموت من الله بعداً .

وأما التائب ،فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث من قلبه الخوف والخشية فيفى بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد وهو معذور فى كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله ﷺ :« من كره لقاء الله كره الله لقاءه » [رواه البخارى ومسلم] .

وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره وهو كالذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه .فلا يُعَدّ كارهاً للقائه وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لاشغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك فى الدنيا .

وأما العارف : فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعد للقائه لحبيبه والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب وهذا فى غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين .

كما روى عن حذيفة ﷺ أنه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة، فقر وشدة حاجة ، لا أفلح من ندم اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلى من الغنى والسقم أحب إلىّ من العيش فسهّل علىّ الموت حتى ألقاك .

قال الإمام الذهبى : ابن آدم كأنك بالموت وقد فجأك وهجم وألحقك بمن سبقك ونقلت إلى بيت الوحدة والظلم وندمت على التفريط غاية الندم . فيا عجباً لعين تنام وطالبها لم ينم متى تحذر مما توعد ومتى تعزم فالخوف فى قلبك إلى متى حسناتك تضمحل ؟ وسيئاتك تجدد .إلى متى لا يهولك زجر المواعظ وإن شدد ؟

إلى متى أنت بين الفتور والتوانى تتردد ؟ متى تحذر يوماً فيه الجلود تنطق وتشهد ؟ متى تترك ما يفنى لما لا ينفد ؟ متى تكون فى الليل قائماً إذا سجا ؟ أين الذين عاملوا مولاهم وانفردوا وقاموا فى الدجى وركعوا وسجدوا وقدموا إلى بابه فى الأسحار ووفدوا وصاموا هواجر النهار فصبروا واجتهدوا ؟ لقد ساروا وتخلفت وفاتك ما وجدوا وبقيت فى أعقابهم وإن لم تلحق بعد يا من صحيفته بالذنوب قد جفت وموازينه بكثرة الذنوب قد خفت أما رأيت عرائس إلى اللحود قد زفت ؟ أما عاينت طور الأجسام فى الأرحام ؟ أين الكاسرة الشجعان ؟ وأين المنعمون بالجوارى؟ وأين من اعتاد سعة القصور ؟ حبس فى القبور .

يا كثير السيئات غداً ترى عملك .يا هاتك الحرمات إلى متى تديم ذلك أما تعلم أن الموت فى تبديد شملك . أما تخاف أن تؤخذ على قبيح فعلك .

واعجباً لك من راحل تركت الزاد فى غير رحلك . أين فطنتك وتدبير عقلك . أما بارزت بالقبيح فأين الحزن .أما علمت أن الحق يعلم السر والعلن ؟

ستعرف خبرك يوم ترحل عن الوطن . وستنتبه من رقادك ويزول هذا الوسن «الغفلة » واعجبًا لنفس الموت موئلها والقبر منزلها واللحد مدخلها ثم يسود عملها:

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون:١١] .

كم قاطع زمانه بالتسويف . بائع دينه بالحبة والرغيف . مشتر للويل بتطفيف الطفيف . يتمنى العود إذا رأت نفسه ما يذهلها .

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ .

كم مشغول بالقصور يعمرها لا يفكر فى القبور ولا يذكرها يبيت الليالى فى فكر

الدنيا ويسهرها يجمع الأموال إلى الأموال يثمرها وقع فى شراك المنايا وهو لا يبصرها أن لدينا هذا آخر وآه لأخرى هذا أولها .

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ .

آه لساعات شديدة الكربات فيها غمرات ليس بنوم ولا سبات تنقطع فيها الأفئدة باللوم على الفوات وتبكى عين الأسف لما مضى من هنوات والمريض ملقى على فراش الحرقات آه من جبال حسرات يحملها .

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ .

لقد صاح بك الصائح بأخذ غاد وسلب رائح . يكفى ما مضى من قبائح فأقبل اليوم هذه النصائح فإن المسكين من يهملها .

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ .

انظر إلى المسيء العاصى الذى كان يتعلل بعسى ولعل ويرى جنده الأفل وحزبه الأقل وناصره الأذل فلا يدعو ولا يزدجر ولا يفكر ولا يعتبر ولا ينظر ولا يستبصر حتى إذا وقعت رايته وقامت قيامته وهجمت عليه منيته وأحاطت به خطيئته فانكشف له الغطاء وتبدت له موارد الشقاء صاح واخيبتاه واثكل أماه وسواء منقلباه . هيهات هيهات ندم والله حيث لا ينفعه الندم وأراد التثبيت بعد ما زالت به القدم فخر صريعاً لليدين والفم إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم ـ مثل يضرب لمن لا ينتفع بالمواعظ.

إخوانى : نذيركم قد صدق والمجتهد قد سبق وقد مضى نهار العمر وبقى الشفق وآخر جرعة اللذة شرق. وصاحب الدنيا منها على فرق . رب غصن ناضر كسر إذا سبق . رب زرع قامت سوقه رماه الغرق . أين الرقيق ساقه سواق ما رفق . هذا وكلكم يدرى أين انطلق . أما رأيتم مضجعه فى القبر بالحدق . واعجبا لقلب المتفكر كيف ما احترق . أما شاهد تموه وقد تقطعت منه العلق وتقمص بعد عريه جلباب الخوف والفرق . وخرس لسانه وقد طال ما نطق :

فما تزود مما كان يجمعــه　　إلا حنوطًا غداة البين في خـرق

وغير نفخه أعوا يشب له　　وقــل ذلك مــن زاد المنطـلـق

أيها المتيقظون وهم نائمون أتبنون مالا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون كونوا كيف شئتم فستعلمون ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٥] .

يا مقيمين سترحلون . يا مستقرن ما تتركون . يا غافلين عن الرحيل ستظعنون . أراكم متوطنين تأمنون المنون . ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ .

طول نهاركم تلعبون . وطول ليلكم ترقدون . والفرائض ما تؤدون وقد رضيتم عن الغالى بالدون . لا تفعلوا ما تفعلون . ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ .

أما الأموال فتجمعون والحق فيها ما تخرجون وأما الصلاة فتضيعون وإذا صليتم تنقرون أترى هذا إلى كم يكون﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ .

أين العتاة المتكبرون ؟ أين الفراعنة المتسلطون ؟ أين أهل الخيلاء المتكبرون ؟ قدروا أنكم صرتم لهم . أما تسمعون ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ .

ما نفعتهم الحصون ولا رد المال المصون هبت زعزع الموت فكسرت الغصون قدروا أنكم تزيدون عليهم ولا تنقصون ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ تقلبوا فى اللذات فى فنون وأخرجهم البطر إلى جنون . فأتاهم ما هم عنه غـافلـون ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الدخان : ٢٥] . ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ .

لو حصل لكم كل ما تحبون ونما جميع ما تؤتون ونلتم من الأمانى ما تشتهون أينفعكم حين ترحلون ؟﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾

إلى متى وحتى تنصحون وأنتم تكسبون الخطايا وتجترحون . أأمنتم وأنتم تسرحون ذئب هلاك فلا تبرحون ؟ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ .

فلا تفرحوا بما تفرحون فإنه لغيركم حين تطرحون وإياكم من يراكم تمرحون قد خسرتم إلى الآن فما تبرحون . ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ .

ويحكم الدنيا دار ابتلاء وفنون وقد زجركم عنها المفتون .وكم رأيتم من هالك بها مفتون وكأنكم بكم قد حملتم على المنون .كم أدلكم على الجنة وتختارون الآتون .« التبصرة ٢/١٧٨ ».

كأنك بالعمر قد انقرض وهجم عليك المرض وفات كل مراد وغرض وإذا بالتلف قد عرض أخاذا : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ [ق: ٢٢] .

شخص البصر وسكن الصوت ولم يمكن التدارك للفوت ونزل بك ملك الموت. قامت الروح وحازى : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ .

عالجت أشد الشدائد فيا عجباً مما تكابد بلغت الروح إلى التراقى ولم تعرف الراقى من الساقى ولم تدر عند الرحيل ما تلاقى عياذا الله عياذا: ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ .

ثم درجوك فى الكفن وحملوك إلى العفن . على العيب القبيح والأفن وصرت فى القبر جذاذا . ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ .

ألا أيها المغرور مالك تلعب تؤمل آمالا وموتك أقرب
وتعلم أن الحرص بحر مبعد سفينته الدنيا فإياك والعطب
وتعلم أن الموت ينقضى مسرعاً عليك يقينا طعمه ليس يعذب
كأنك توصى واليتامى تراهم وأمهم الثكلى تنوح وتندب

كان بالبصرة عابد قد أجهده الخوف والوله وأسقمه البكاء وأنحله فلما حضرته الوفاء جلس أهله يبكون حوله فقال لهم : أجلسونى فأجلسوه فأقبل عليهم وقال لأبيه :يا أبت مالذى أبكاك ؟ قال: يا بنى ذكرت فقدك وانفرادى بعدك فالتفت إلى أمه وقال: يا أماه ما الذى أبكاك؟ قالت: تجرى مرارة ثكلك فالتفت إلى الزوجة وقال: ما الذى أبكاك ؟ قالت: لقد برك وحاجتى لغيرك فالتفت إلى أولاده وقال:

ما الذى أباكم؟ قالوا لذل اليتم والهوان بعدك فعند ذلك نظر إليهم وبكى . . . فقالوا له : ما يبكيك أنت ؟ قال:أبكى لأنى رأيت كلا منكم يبكى لنفسه لا لى أما فيكم من بكى لطول سفرى ؟ أما فيكم من بكى لما ألقاه من سوء الحساب ؟ أما فيكم من بكى لموقفى بين يدى رب الأرباب ؟ ثم سقط على وجهه فحركوه فإذا هو ميت .

[المواعظ والمجالس ص ١١١] .

سكرات الموت

يقول صاحب الإحياء رحمه الله :

اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديراً بأن يتنغص عليه عيشته ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهره وغفلته وحقيقا بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده لا سيما وهو فى كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك ولا تدرى متى يغشاك. وقال لقمان لابنه : يا بنى أمرٌ لا تدرى متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك. والعجب أن الإنسان لو كان فى أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه أسد فيضربه خمس ضربات لتكدر عليه لذته وفسد عليه عيشه وهو فى كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور واعلم أن شدة الألم فى سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها .

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر فى أعماق البدن إلا وقد حل به الألم فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم فلا تسأل عن كربه حتى قالوا: إن الموت لأشد من ضرب السيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المقاول المباشر نفس الروح؟ وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لسانه إنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وبلغ كل موضع منه فهدّ كل قوة وضعّف كل جارحة فلم يترك له قوة الاستغاثة .

أما العقل ، فقد غشيه وشوّشه وأما اللسان فقد أبكمه وأما الأطراف فقد

ضعفها ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خواراً وغرغرة من حلقة وصدره وقد تغير لونه واربّد حتى ظهر منه التراب الذى هو أصل فطرته وقد جُذب منه كل عرق على حياله فالألم منتشر فى داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالى أجفانه وتتقلص الشفتان ويتقلص اللسان إلى أصله وترتفع الأنثيان إلى أعالى موضعهما وتخضر أنامله .

فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقاً واحداً لكان ألمه عظيماً فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم؟ لا من عرق واحد بل من جميع العروق ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجياً فتبرد أولاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة.

عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » ، [رواه الترمذى وأحمد وابن ماجه وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٠٣)] .

وقال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء:١٨] .

قال : إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته . ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم هون علىّ سكرات الموت » .

والناس إنما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية ولذلك عظم خوف الأنبياء والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين ادعوا لله تعالى أن يهون علىّ هذه السكرة ـ يعنى الموت ـ فقد خفت الموت مخافة حتى أوقفنى خوفى من الموت على الموت .

وروى أن نفراً من بنى إسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض :لو دعوتم الله

تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتاً تسألونه ؟ فدعوا الله تعالى فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه السجود قد خرج من القبور فقال: يا قوم ما أردتم منى لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبى .

وقالت عائشة ﵂ : لا أغبط أحد يهون عليه الموت بعد الذى رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ .

وكان علىّ كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول: إن لم تُقلوا تموتوا والذى نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون علىّ من موت على فراش .

وقال الأوزاعى : بلغنا أن الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره .

وقال شداد بن أوس : الموت أفظع هول فى الدنيا والآخرة على المؤمن وهو أشد من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وغلى فى القدور ولو أن الميت رجع فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: إذا بقى على المؤمن من درجاته شىء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه ودرجته فى الجنة وإذا كان للكافر معروف لم يجزبه هون عليه فى الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار .

وعن بعضهم : أنه كان يسأل كثيراً المرضى كيف تجدون الموت؟ فلما مرض قيل له : فأنت كيف تجده ؟ فقال: كأن السموات مطبقة على الأرض وكأن نفسى يخرج من ثقب إبره .

عن عبيد الله بن خالد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ :« موت الفجأة أخذة أسف» . رواه أحمد وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٣١).

وروى أن إبراهيم ﵇ لما مات قال الله تعالى: كيف وجدت الموت يا خليلى قال: كسفود جعل فى صوف رطب ثم جُذب . فقال: أما إنا قد هونا عليك .وروى عن موسى ﵇ أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه :يا موسى كيف وجدت الموت قال: وجدت نفسى كالعصفور حين يقلى على المقلى لا يموت فيستريح

ولا ينجو فيطير.

وروى عنه أنه قال: وجدت نفسى كشاة حية تسلخ بيد القصاب عن عائشة رضي الله عنها قالت : أن رسول الله ﷺ كان بين يديه ركوة فيها ماء فجعل يدخل يده فى الماء فيمسح بها وجهه ويقول :« لا إله إلا الله إن للموت لسكرات » وفى رواية « اللهم أعنى على سكرات الموت » [رواه أصحاب السنن سوى أبى داود بسند حسن] .

وفاطمة رضي الله عنها تقول: واكرباه لكربك يا أبتاه .وهو يقول « لا كرب على أبيك بعد اليوم » [أخرجه البخارى عن أنس] .

وقال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار : يا كعب حدثنا عن الموت فقال: نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كغصن كثير الشوك أدخل فى جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى . فهذه سكرت الموت على أولياء الله وأحبابه فما حالنا ونحن المنهمكون فى المعاصى .

* أخى :

فكأنك قد نزل بك الموت وشيكاً سريعاً فتوهم نفسك وقد صرعت للموت صرعة لا تقوم منها إلى الحشر إلى ربك فتوهم نفسك فى نزع الموت وكربه وغصصه وسكراته وغمه وقلقه .وقد بدأ الملك يقبض روحك من قدمك فوجدت ألم جذبه من أسفل قدميك ثم تدارك الجذب واستحث النزع وجذبت الروح من جميع بدنك فنشطت من أسفلك متصاعدة إلى أعلاك حتى إذا بلغ منك الكرب منتهاه وعمت آلام الموت جميع جسمك وقلبك وجل محزون مرتقب منتظر للبشرى من الله عز وجل بالغضب أو الرضا وقد علمت أنه لا محيص لك دون أن تسمع إحدى البشرتين من الملك الموكل بقبض روحك .

دواهى الموت ثلاث

الأولى : شدة النزع كما ذكرناه .

الداهية الثانية : مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب. فلو رأى صورته التى يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته . فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت : هل تستطع أن ترينى صورتك التى تقبض عليها روح الفاجر ؟قال: هل تطيق ذلك؟ قال بلى قال: فأعرض عنه ثم التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الريح أسود الثياب يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان فغشى على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال: يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه [أى يكفيه].

وروى أبوهريرة عن النبى ﷺ :« إن داود عليه السلام كان رجلاً غيوراً وكان إذا خرج أعلق الأبواب فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فإذا هى برجل فى الدار فقالت: من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقين منه عناء ؟ فجاء داود فرآه فقال: من أنت؟ فقال: أنا الذى لا أهاب الملوك ولا يمنع منى الحجاب .فقال: فأنت والله أذن ملك الموت ولزم داود عليه السلام مكانه » . أخرجه أحمد (٢/ ٤١٩) وابن الدنيا فى كتاب الموت .

فهذه داهية يلقاها العصاة ويكفاها المطيعون فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزع دون الروعة التى يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ولو رآها فى منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره فكيف برؤيته فى مثل تلك الحال ؟

وأما المطيع فإنه يراه فى أحسن صورة وأجملها .فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلاً غيوراً وكان له بيت يتعبد فيه فإذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فدخل فإذا برجل فى جوف البيت فقال : من أدخلك دارى ؟

فقال : أدخلنيها ربها . فقال : أنا ربها . فقال: أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك .فقال: هل أنت من الملائكة ؟ قال: أنا ملك الموت قال: هل تستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال : نعم . فأعرض عنى فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال: يا ملك الموت . لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه (يكفيه) .

ومنه مشاهدة الملكين الحافظين .قال: وهيب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله فإن كان مطيعاً قالا له : جزاك الله عنا خيراً فرب مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح أحضرتنا . وإن كان فاجراً قالا له: لا جزاك الله عنا خيراً فرب مجلس سوء أجلستنا وعمل صالح أحضرتنا وكلام قبيح أسمعتنا فلا جزاك الله عنا خيراً فذلك شخوص بصر الميت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبداً .

فوالله يا أخى : إنها اللحظة الحاسمة فى حياة المؤمن والكافر .

إنها اللحظة التى يسمع فيها النداء الذى يبشره بالرحمة أو النداء الذى يتوعده بالعذاب .

ولك أن تتخيل أيها الحبيب أن ملك الموت قد دخل عليك الآن وسينادى عليك ويقول: « يا أيتها النفس الـ . . . . » وأنت بين تلك الكربات وتلك الحسرات تسأل نفسك يا ترى بأى النداء سوف ينادى علىّ ؟ هل سيقول يا أيتها النفس المطمئنة أخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان ؟!

أم سينادي ويقول« يا أيتها النفس الخبيثة أخرجى إلى سخط الله وغضب » .

فإذا جاءك النداء الأول : « يا أيتها النفس المطمئنة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان » فذاك هو الفوز الذى لا فوز بعده وتلك هى البشرى التى لا تدانيها الدنيا بما عليها.

وأما إن جاءك النداء الثانى عياذًا بالله « أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط

من الله وغضب » فتلك هى الحسرة التى لا حسرة تدانيها فى هذه الدنيا . . . إنه الوعيد والعذاب الذى لا ينتهى أبداً .

ذُكر فى بعض الأخبار أن الميت ينادى عليه إذا وضع على المغتسل : أين لسانك الفصيح ما أسكتك ؟ أين صوتك الشجى ما أخرسك ؟ أين ريحك العطر ما أنتنك؟ أين حركاتك ما أسكنك ؟ أين أموالك الكثيرة ما أفقرك ؟ الويل لك إن كنت عاصياً والبشرى لك إن كنت طائعاً وتناديه الملائكة إذا وضع فى القبر : يا عبد الله أنت تركت الدنيا أم الدنيا تركتك ؟ أنت جمعت الدنيا أم الدنيا جمعتك ؟

عباد الله لا تغفلوا عن ذكر الموت . وتفكروا فيه قبل الفوت فوالله ما بين أحدكم وبين طول الأسف والندامة على ما قد سلف .إلا أن تنزل به المنية غدوة أو عشية . فعظ نفسك قبل حلول الرزية .

ولقد قيل فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾[المنافقون: ١٠] .

قيل: الأجل القريب عند كشف الغطاء . يقول العبد عند الموت: يا ملك الموت أخرنى يوماً أعمل فيه صالحاً لنفسى . فيقول ملك الموت : فنيت الأيام فلا يوم . فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة . فيقول : اتركنى أتكلم فيقول أخرنى ساعة . فيقول :فرغ كلامك فلا كلام . فتبلغ الروح الحلقوم فيؤخذ يكظمه فتقطع الأوقات والأعمال ويبقى عدد الأنفاس ليشهد فيها المعاينة عند كشف الغطاء فيحتد بصره فإذا كان فى آخر نفس زهقت نفسه فيدركه ما سبقت له من شقاوة أو سعادة .

أما عن الداهية الثالثة : فهى مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة .فإنهم فى حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بإحدى البشريين :إما أبشر يا عدو الله بالنار أو أبشر يا ولى الله بالجنة.ومن هنا كان خوف أرباب الألباب .

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ :« من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » .فقلت يا نبى الله : أكراهية الموت ؟ فكلنا يكره الموت .قال : « ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه » . اخرجه مسلم .

أحوال السلف عند الاحتضار

أبو بكر الصديق :

لما احتضر أبو بكر الصديق ﷺ قالت عائشة :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال: ليس كذلك ولكن قولى: ﴿ **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ** ﴾ [ق :١٩] ولذلك كان يقوله أبو بكر . أحمد فى الزهد ص١٣٦ وابن سعد فى الطبقات ١٩٦/٣.

عمر بن الخطاب :

وقال عمر بن الخطاب ﷺ عند الموت : ويلى وويل أمى إن لم يرحمنى ربى.
ابن سعد ٣/ ٣٦٠ .

عثمان بن عفان :

ولما دخلوا على عثمان ﷺ جعل يتمثل:

أرى الموت لا يبقى حزينا ولا يدع لعاد ملاكا فى البلاد ومرتقى

يبيت أهل الحصن والحصن مغلق ويأتى الجبال من شمارخها العلى

« التبصرة » .

على بن أبى طالب :

ولما جرح على بن أبى طالب ﷺ جعل يقول :

شد حياز يمك للموت فإن الموت لا قيك

ولا تجزع من الموت إذا حل بواديك

الحيازيم والمفرد حيزوم : الأعضاء والأنسجة التى تشغل وسط الصدر ما بين
ـرتين . « التبصرة » .

معاوية بن أبى سفيان:

ولما احتضر معاوية جعل يقول :

إن تناقش يكن نقاشك يا رب عذابا لا طوق لى بالعذاب

أو تجاوز فأنت رب عفو عن مسيء ذنوبه كالتراب

« التبصرة » .

ولما حضرته الوفاة ﷺ قال: أقعدونى . فأقعد فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ثم بكى وقال : تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط؟ ألا كان هذا وغصن الشباب نضريان ! وبكى حتى علا بكاؤه وقال: يا رب ارحم الشيخ العاصى ذا القلب القاسى اللهم أقل العثرة واغفر الذلة وعد بحلمك على من لم يرْجُ غيرك ولم يثق بأحد سواك . « قصص الصالحين» .

معاذ بن جبل :

ولما احتضر معاذ جعل يقول: أعوذ بالله من ليلة صباحها النار مرحبا بالموت زائر مغب حبيب جاء على فاقة اللهم إنى قد كنت وأنا اليوم أرجوك اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار = شقها = ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر .
«التبصرة » .

أبو الدرداء ﷺ :

لما احتضر أبوالدرداء جعل يقول : ألا رجل يعمل لمثل مصرعى هذا، ألا رجل يعمل لمثل ساعتى هذه ، ألا رجل يعمل لمثل يومى هذا، وبكى فقالت له امرأته : تبكى وقد صاحبت رسول الله ﷺ ؟ فقال :وما لى لا أبكى ولا أدري علام أهجم

من ذنوبى . « التبصرة » .

أبو هريرة ﷺ :

لما احتضر أبو هريرة بكى . فقيل له : وما يبكيك ؟ فقال : بُعد المفازة وقلة الزاد وعقبة كئود المهبط منها إلى الجنة أو إلى النار.« التبصرة » .

حذيفة بن اليمان :

قيل لحذيفة فى مرضه :ما تشتهى؟ قال الجنة: قيل:فما تشتكى؟ قال: الذنوب.

ولما حُضر ﷺ قال: غُطَّ يا موت غَطَّك وشُدَّ يا موت شدَّك أبى قلبى إلا حبك جاء رخاء العيش بعدك حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم أليس ورائى ما أعلم الحمد لله الذى سبق بى الفتنة قادها وعلوجها. « من قصص الصالحين » .

سلمان الفارسى ﷺ:

ولما حضرت سلمان الوفاة قال لصآحبة منزله :هلُمِّى خبيتى ـ أى الشىء الذى خبأته ـ فجاءته بِصُرة من مسك فقال لها : إيتينى بقدح فيه ماء فجاءت بقدح فيه ماء فطرح المسك فيه ثم أماته أى خلطه ثم قال لها: انضحيه حولى .فإنه يحضرنى خلق من خلق الله عز وجل يجدون الريح ولا يأكلون الطعام . . . ففعلت ثم قال لها : أجيفى ـ أى ردى على الباب ـ على الباب ثم انزلى ففعلت ثم مكثت قليلا، ثم صعدت فإذا هو قد مات رحمه الله عليه ورضوانه . «قصص الصالحين » .

سعد بن أبى وقاص:

لما حضرت الوفاة سعداً ﷺ دعا بخَلَق جُبَّة أى قديمة بالية له من صوف فقال: كفِّنونى فيها فإنى لقيت المشركين فيها يوم بدر وإنما كنت أخبأتها لهذا اليوم .

الحسن بن على على فراش الموت:

قال رقبة بن مصقلة : لما احتضر الحسن بن على قال: أخرجوا فراشى إلى صحن الدار . قال: فرفع رأسه إلى السماء ثم قال:

اللهم إنى أحتسب نفسى عندك فإنها أعز الأنفس علىَّ « أخرجه ابن أبى الدنيا وسنده صحيح » .

وقال رقبة بن مصقلة : لما حضر الحسن بن على قال: أخرجونى إلى الصحراء لعلى أنظر فى ملكوت السماء ـ يعنى الآيات ـ فلما أخرج به قال: [اللهم إنى أحتسبت نفسى عندك فإنها أعز الأنفس علىَّ] .فكان مما صنع به الله عز وجل أنه احتسب نفسه] [أخرجه أبو نعيم (٢/٣٨) فى الحلية بسند صحيح] .

أبو ذر الغفارى على فراش الموت :

عن إبراهيم الأشتر عن أبيه عن أم ذر قالت: لما حضر أبا ذر الوفاة بكيت فقال: ما يبكيك ؟ فقلت : ما لى لا أبكى وأنت تموت بفلاة من الأرض ولا يدان لى بنعشك وليس معنا ثوب يسعك كفنا ولا لك .فقال لا تبكى وأبشري فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يموت بين امرأين مسلمين ولدان أو ثلاثة فيصبران ويحتسبان فيريان النار أبداً » .وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول لنفر أنا فيهم : « ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين » .وليس من أولئك أحد إلا وقد مات فى قرية أو جماعة وإنى أنا الذى أموت بالفلاة والله ما كذبت ولا كذبت فأبصرى الطريق .قالت: فقلت : إنى وقد ذهب الحاج وتقطعت الطرق ؟ فقال انظرى . فكنت أشتد إلى الكتيب فأقوم عليه ثم أرجع إليه فأمرضه قالت: فبينما أنا كذلك إذ أنا برجال على رواحلهم كأنهم الرخم ـ الرخم: جمع رخمة وهو طائر يقع على شكل النسر خلقة إلا أنه مبقع بسواد وبياض ـ فأخبت ـ تخب : تسرع ـ بهم فأسرعوا إلىَّ ووضعوا السياط فى نحورها ،يستبقون إلىّ فقالوا: مالك يا أمة الله ؟ فقلت: امرؤ من المسلمين يكفنونه يموت .قالوا ومن هو ؟ قلت: أبو ذر قالوا: صاحب رسول الله ﷺ ؟ قلت: نعم .قالت : فقدوه بآبائهم وأمهاتهم وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه فسلموا عليه فرحب بهم وقال : أبشروا فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يموت بين امرأين من المسلمين ولدان أو

ثلاثة فيصبران ويحتسبان فيريان النار أبداً » .

وسمعته يقول: لنفر أنا فيهم: « ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين » .وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد هلك فى قرية أو جماعة وأنا الذى أموت بفلاة من الأرض والله ما كذبت والله ما كذبت وإنه لو عندى ثوباً يعنى كفناً لم أكفن إلا فى ثوب هو لى أو لها وإنى أنشدكم الله لا يكفنى رجل منكم كان أميرًا أو عريفا أو بريدًا أو نقيبا قال : فليس من القوم أحد إلا وقد قارف من ذلك شيئاً إلا فتى من الأنصار .فقال: أنا أكفنك فى ردائى هذا وفى ثوبين فى عيبتى من غزل أمى .قال: أنت فكفنى .فكفنه الأنصارى ودفنه فى النفر الذين معه منهم حجر بن عدى الأدبر ومالك بن الأشتر فى نفر كلهم يمان .(حديث صحيح بطرقه : اخرجه ابن سعد فى طبقاته وأحمد وابن عبد البر وأبو نعيم فى الحلية وابن الأثير فى أسد الغابة) .

أبو موسى الأشعرى على فراش الموت :

قال الضحاك بن عبد الرحمن : دعا أبو موسى الأشعرى فتيانه حين حضرته الوفاة فقال: اذهبوا فاحفروا وأوسعوا وأعمقوا .فجاءوا فقالوا: قد حفرنا وأوسعنا وأعمقنا .فقال :والله إنها لإحدى المنزلتين : إما ليوسعن على قبرى حتى يكون كل زاوية منه أربعين ذراعاً ثم ليفتحن لى باب إلى الجنة فلأنظرن إلى أزواجى ومنازلى وما أعد الله عز وجل لى من الكرامة ثم ليصبنى من ريحها وروحها حتى أبعث ولئن كانت الأخرى ـ ونعوذ بالله منها ـ ليضيقن علىّ قبرى حتى أكون فى أضيق من القناة فى الزُّج ثم ليفتحن لى باب من أبواب جهنم فلأنظرن إلى سلاسلى وأغلالى وقرنائى ثم ليصيبنى من سمومها وحميمها حتى أبعث .[صفة الصفوة (١/ ٥٦٠ ـ ٥٦١) لابن الجوزى] .

وعن أبى بردة رحمه الله ـ قال :لما حضرت أبا موسى الوفاة قال: يا بنى اذكروا صاحب الرغيف قال: كان يتعبد فى صومعته أراه قال سبعين سنة لا ينزل إلا فى يوم واحد قال: فشبه أو شبه الشيطان فى عينه امرأة قال: فكان معها سبعة أيام وسبع ليال .قال: ثم كشف عن الرجل غطاؤه فخرج تائباً فكان كلما حظا حظوة صلى

بمسجد فآواه الليل إلى وكان عليه اثنا عشر مسكينا فأدركه الإعياء فرمى بنفسه بين رجين منهم وكان ثمَّ راهب يبعث إليهم كل ليلة بأرغفة فيعطى كل إنسان رغيفاً. فجاء صاحب الرغيف فأعطى كل إنسان رغيفاً فقال المتروك لصاحب الرغيف .

الرغيف: مالك لم تعطنى رغيفى ؟

قال: أترانى أمسكه عنك ؟ والله لا أعطيك الليلة شيئاً .

فعمد التائب إلى الرغيف الذى دفعه إليه فدفعه إلى الرجل الذى ترك فأصبح التائب ميتاً .

قال: فوزنت السبعون سنة بالسبع ليالى فرجحت الليالى فوزن الرغيف بالسبع ليالى فرجح الرغيف .

فقال أبو موسى : يا بنى . . . اذكروا صاحب الرغيف. (المرجع السابق).

عمرو بن العاص رضي الله عنه :

لما حضرت عمرو بن العاص رضي الله عنه الوفاة ذرفت عيناه فبكى فقال له ابنه عبد الله : يا أبتاه ما كنت أخشى أن ينزل بك من أمر الله عز وجل إلا صبرت عليه فقال عمرو : يا بنى . . . إنه نزل لأبيك خصال ثلاث : أما أولهن : فانقطع عمله. وأما الثانية : فهول المطلع .وأما الثالثة : ففراق الأحبة وهى أيسرهن.

ثم قال: اللهم إنك أمرت فتوانيت ونهيت فعصيت اللهم ومن شيمتك العفو والتجاوز . [خبر صحيح : أخرجه أحمد (٤/ ١٩٩ـ ٢٠٠) فى المسند والسير (٣/ ٧٥) للذهبى] .

وعن عبد الله بن عمرو أن أباه أوصاه : إذا مت فاغسلنى غسلة بالماء ثم جففنى فى ثوب ثم اغسلنى الثانية بماء قراح ثم جففنى ثم اغسلنى الثالثة بماء فيه كافور ثم جففنى وألبسنى الثياب ثم إذا حملتنى على السرير فامش بى مشياً بين المشيتين وكن خلف الجنازة فإن مقدمها للملائكة وخلفها لبنى آدم فإذا أنت وضعتنى فى القبر فسُنَّ علىَّ التراب سنا .[سن: صب] .

ثم قال: اللهم إنك أمرتنا فأضعنا ونهيتنا فركبنا فلا بريء فأعتذر ولا عزيز فأنتصر ولكن لا إله إلا الله وما زال يقولها حتى مات .[أخرجه ابن سعد (٤/ ٢٦٠)].

مالك بن دينار :

قال حزم القطعي رحمه الله : دخلنا على مالك بن دينار رحمه الله ـ وهو يكيد بنفسه [يعني يحتضر ـ .فرفع طرفه ثم قال: اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب البقاء لبطن ولا فرج وقال ابن مرزوق :بلغنى أن مالك بن دينار دخل المقابر ذات يوم فإذا رجل يدفن فجاء حتى وقف على القبر فجعل ينظر إلى الرجل وهو يدفن فجعل يقول : مالك .غداً هكذا يصير وليس له شيء يتوسده فى قبره فلم يزل يقول: غدا مالك هكذا يصير حتى خر مغشياً عليه فى جوف القبر فحملوه فانطلقوا به إلى منزله مغشياً عليه .[أخرجه ابن الجوزى (٣/ ٢٨٠) فى صفةالصفوة].

وقال أبو عيسى : دخلنا على مالك بن دينار عند الموت فجعل يقول: لمثل هذا اليوم كان دؤوب أبى يحيى (المرجع السابق ص ٣/٢٨٨) .

وقال عمارة بن زازان : إن مالك بن دينار لما حضره الموت قال: لولا أنى أكره أن أصنع شيئاً لم يصنعه أحد كان قبلى لأوصيت أهلى إذا أنا مت أن يقيدونى وأن يجمعوا يدى إلى عنقى فينطلقوا بى على تلك الحال حتى أدفن كما يصنع بالعبد الآبق .(المرجع السابق) .

وكان وفاة مالك بن دينار فى سنة ثلاثين ومائة .رحمه الله تعالى .

وقال سلام بن مسكين ـ رحمه الله : دخلت على مالك بن دينار فى مرضه الذى مات فيه فإذا البيت فيه سرير أثل مرمول بشريط وعليه قطعة بورى ـ حصير ـ وإذا تحت رأسه قطعة كساء وإذا ركوة فرفع رأسه فأخرج من تحت رأسه رغيفين يابسين . فقعد يكسر الرغيفين فى الماء حتى إذا ظن أن الخبز قد ابتل .

قال : ناولنى الدوخلة ـ المخلاة ـ فإذا دوخلة معلقة يابسة فوضعتها فأخرج منها صرة فيها ملح وقال لى : ادن فقلت : يا أبا يحيى لا أشتهى .فقال:

قال : هيهات . . . هيهات . . . أنت ممن غُدّى فى الماء العذب فلا تصير فى الماء ـلح .[اخرجه أبو نعيم (٢/ ٣٦٩) فى الحلية وسنده حسن].

ـبخاري على فراش الموت :

عن عبد القدوس السمرقندى يقول: جاء محمد بن إسماعيل إلى خرتنك (قرية) على فرسخين من سمرقند وكان له بها أقرباء فنزل عندهم فسمعته ليلة يدعو وقد فرغ من صلاة الليل :اللهم إنه قد ضاقت على الأرض بما رحبت فاقبضنى إليك فما تم لشهر حتى مات وقبر بخرتنك (وهى قرية من قرى سمرقند) [اخرجه الخطيب ٢/ ٣٤) فى ـريخ بغداد والمزى (١١١٢) فى تهذيب الكمال .وابن حجرص٤٩٤ فى مقدمة الفتح] .

وعن محمد بن أبى حاتم قال: سمعت أبا منصور غالب بن جبريل وهو الذى نزل عليه أبو عبد الله يقول : إنه أقام عندنا أيامًا فمرض واشتد به المرض حتى وجه رسولاً إلى مدينة سمرقند فى إخراج محمد فلما وافى تهيأ للركوب فلبس خفيه وتعمم فلما مشى قدر عشرين خطوة أو نحوها وأنا آخذ بعضده ورجل أخذ معى يقوده إلى الدابة ليركبها فقال رحمه الله : أرسلونى فقد ضعفت فدعا بدعوات ثم اضطجع فقضى ـ رحمه الله ـ فسال منه العرق شيء لا يوصف فما سكن منه العرق إلى أن أدرجناه فى ثيابه وكان فيما قال لنا وأوصى إلينا أن كفنونى فى ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميص ولا عمامة ففعلنا ذلك .

فلما دفناه فاح من تراب قبره رائحة غالية أطيب من المسك فدام ذلك أيامًا ثم علت سوارى بيض فى السماء مستطيلة بحذاء قبره فجعل الناس يختلفون ويتعجبون وأما التراب فإنهم كانوا يرفعون عن القبر حتى ظهر القبر ولم نكن نقدر على حفظ القبر بالحراس وغلبنا على أنفسنا فنصبنا على القبر خشبا مشبكًا لم يكن أحد يقدر على الوصول إلى القبر فكانوا يرفعون ما حول القبر من التراب ولم يكونوا يخلصون إلى القبر . . . وأما ريح الطيب فإنه تداوم أيامًا كثيرة حتى تحدث أهل البلدة وتعجبوا من ذلك وظهر عند مخالفيه أمره بعد وفاته وخرج بعض مخالفيه إلى قبره وأظهروا التوبة والندامة مما كانوا شرعوا فيه من مذموم المذهب.

وعن محمد بن أبي حاتم قال : ولم يعش أبو منصور غالب بن جبريل بعده إلا القليل وأوصى أن يدفن إلى جنبه .

عن عبد الواحد بن آدم الطواويسى يقول: رأيت النبى ﷺ فى النوم ومعه جماعة من أصحابه وهو واقف فى موضع فسلمت عليه فرد علىّ السلام فقلت : ما وقوفك يا رسول الله ؟ قال: أنتظر محمد بن إسماعيل البخارى فلما كان بعد أيام بلغنى موته . فنظرت فإذا قد مات فى الساعة التى رأيت النبى ﷺ فيها . [أورده الذهبى (١٢/٤٦٧ ، ٤٦٨) والسبكى (٢/٢٣٣) فى طبقاته] .

وعن مهيب بن سليم الكرمينى يقول: مات عندنا البخارى ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين وقد بلغ اثنين وستين سنة وكان فى بيت وحده فوجدناه لما أصبح وهو ميت عن الحسن بن الحسين البزاز البخارى يقول: توفى البخارى ليلة السبت ليلة الفطر عند صلاة العشاء ودفن يوم الفطر بعد صلاة الظهر سنة ست وخمسين ومائتين وعاش اثنين وستين سنة إلا ثلاثة عشر يوماً . [صفة الصفوة (٤/ ١٧١) لابن الجوزى] .

*** مع عبد الملك بن مروان :**

لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسّان بجانب دمشق يلوى ثوبا بيده ثم يضرب به المغسلة فقال عبد الملك : ليتنى كنت غسالاً آكل من كسب يدي يوما بيوم ولم ألِ من أمر الدنيا شيئاً : فبلغ ذلك أبا حازم فقال: الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه وإذا حضرنا الموت لم نتمَنَّ ما هم فيه .

وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه: كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال: أجدنى كما قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام]

*** مع عمر بن عبد العزيز :**

قيل له لما حضره الموت: اعهد « يعنى أوصنا » يا أمير المؤمنين فقال : أحذركم مثل مصرعى هذا فإنه لا بد لكم منه .

وروي أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعى له طبيب فلما نظر إليه قال: أرى الرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال: ولا تأمن الموت أيضاً على من لم يُسق السم .قال الطبيب ،هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم قد عرفت ذلك حين وقع فى بطنى. قال: فتعالج يا أمير المؤمنين فإنى أخاف أن تذهب نفسك . فقال: ربى خير مذهوب إليه والله لو علمت أن شفائى عند شحمة أذنى ما رفعت يدى إلى أذنى فتناولته . . اللهم خِرْ لعمر فى لقائك فلم يلبث إلا أياماً حتى مات .

وقيل : لما حضرته الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ أبشر فقد أحيا الله بك سُننا وأظهر بك عدلاً .فبكى ثم قال: ألست أُوقف فأسأل عن أمر هذا الخلق ؟ فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسى أن لا تقوم بحجتها بين يدى الله إلا أن يلقنها الله حجتها فكيف بكثير مما ضيَّعنا ،وفاضت عيناه فلم يلبث إلا يسيراً حتى مات .

ولما قرب وقت موته قال: أجلسونى . فأجلسوه .فقال: أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت ـ ثلاث مرات ـ ولكن لا إله إلا الله .

ثم رفع رأسه فأحدَّ النظر فقيل له فى ذلك فقال: إنى لأرى حضرة ما هم بإنس ولا جن ثم قبض رحمه الله (البداية والنهاية ج٤ ص١١١).

*** مع هارون الرشيد:**

حكى عن هارون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت وكان ينظر إليها ويقول: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾ [الحاقة] .

*** مع المأمون:**

فرش المأمون رماداً واضطجع عليه وكان يقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه .

*** مع الحجاج بن يوسف الثقفى :**

قال الحجاج عند موته : اللهم اغفر لى فإن الناس يقولون إنك لا تغفر لى فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها ولما حكى ذلك للحسن قال: أقالها ؟ قيل : نعم قال: عسى .

*** مع المعتصم :**

قال المعتصم عند موته : لو علمت أن عمرى هكذا قصير ما فعلت.

*** مع إبراهيم النخعى :**

لما حضر إبراهيم النخعى الموت بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أنتظر من الله رسولاً يبشرنى بالجنة أو النار .

*** مع عامر بن عبد القيس :**

لما حضر عامر بن عبد القيس الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك ؟ قال: أما أبكى جزعاً من الموت ولا حرصا على الدنيا ولكن أبكى على ما يفوتنى من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل فى الشتاء .

*** مع ابن المنكدر :**

لما حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال: والله ما أبكى لذنب أعلم أنى أتيته ولكن أخاف أنى أتيت شيئاً حسبته هيناً وهو عند الله عظيم .

*** الفضيل بن عياض:**

لما حضرت فضيلاً الوفاة غشى عليه ثم فتح عينيه وقال: وا بُعدَ سفراه وا قِلَّة زاداه .

* عبد الله بن المبارك :

فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة .وضحك وقال: ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴾[الصافات] .

وقيل: لما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر [مولاه] : اجعل رأسى على التراب فبكى نصر . فقال له : ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيراً غريباً . قال: اسكت فإنى سألت الله تعالى أن يحيينى حياة الأغنياء وأن يميتنى موت الفقراء .ثم قال له : لقّنّى ولا تعد علىّ ما لم أتكلم بكلام ثان .

وبكى بعضهم عند الموت فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: آية فى كتاب الله تعالى قوله عز وجل : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)﴾ [المائدة] .

الإمام الشافعى:

دخل المزنى على الشافعى رحمة الله عليهما فى مرضه الذى توفى فيه فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقاً ولسوء عملى ملاقياً ولكأس المنية شارباً وعلى الله تعالى وارداً ولا أدرى أروحى تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها. . ثم أنشأ يقول:

ولما قسى قلبى وضاقت مذاهبى ... جعلت رجائى نحو عفوك سُلّما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ... بعفوك ربى كان عفوك أعظما
فما زالت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منّة وتكرما
ولولاك لم يغو بإبليس عابدٌ ... فكيف وقد أغوى صفيك آدما

[الروض الفائق ص ٣٤] .

أبو زرعة الرازى على فراش الموت :

عن محمد بن مسلم بن وارة قال: رأيت أبا زرعة فى المنام فقلت له ما حالك يا أبا زرعة قال أحمد الله على أحوالى كلها إنى حضرت فوقفت بين يدى الله تعالى فقال : يا عبيد الله لم تذرعت القول فى عبادى ؟ قلت : يا رب إنهم حاولوا دينك. قال: صدقت .ثم أتى بطاهر الخلقانى فاستعديت عليه إلى ربى تعالى فضرب الحد مائة ثم أمر به إلى الحبس ثم قال: ألحقوا عبيد الله بأصحابى: أبى عبد الله وأبى عبد الله وأبى عبد الله : سفيان الثوري .ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل.

أخرجه الخطيب (١٠/ ٣٣٦) فى تاريخ بغداد وأورده الذهبى (١٣/ ٧٦ـ٨٥) فى السِّيَر .

عن ابن وارة قال: حضرت أنا وأبو حاتم عند وفاة أبى زرعة فقلنا: كيف تلقن مثل أبى ذرعة ؟ فقلت: حدثنا أبو عاصم . حدثنا عبد الحميد بن جعفر وقال أبو حاتم ، حدثنا بندار فى آخرين حدثنا أبو عاصم حدثنا عبد الحميد ففتح عينيه وقال: حدثنا بندار . حدثنا أبو عاصم أخبرنا عبد الحميد حدثنا صالح بن أبى عريب عن كثير بن مرة عن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ : «من كان آخر كلامه :لا إله إلا الله » وخرج روحه معه .

وفى رواية أخرى : « من كان آخر كلامه :لا إله إلا الله دخل الجنة» .

[أورده الذهبى (١٣/ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٨٥) فى السير].

ليس الغريب غرب الشام واليمن إن الغريب غريب اللحد والكفن

تمر ساعات أيامى بلا ندم ولا بكاء ولا خوف ولا حزن

سفري بعيد وزادي لا يبلغنى وقسمتى لم تزل والموت يطلبنى

ما أحكم الله عنى حيث أمهلنى وقد تماديت فى ذنبى ويسترنى

أنا الذى أغلق الأبواب مجتهداً على المعاصى وعين الله تنظرنى

يا زلة كتبت يا غفلة ذهبت يا حسرة بقيت فى القلب تقتلنى

دع عنك عذلى يا من كان يعذلنى لو كنت تعلم ما بى كنت تعذرنى

دعنى أنوح على نفسى وأندبها وأقطع الدهر بالتذكار والحزن

دعنى أسح دموعاً انقطاع لها فهل عسى عبرة منها تُخلّصنى

كأننى بين تلك الأهل منطرحاً على الفراس وأيديهم تقلبنى

وقد أتوا بطبيب كى يعالجنى ولم أر من طبيب اليوم ينفعنى

واشتد نزعى وصار الموت يجذبها من كل عرق بلا رفق ولا هون

واستخرج الروح منى فى تغرغرها وصار فى الحلق مرًا حين غرغرنى

وغمضونى وراح الكل وانصرفوا بعد الإياس وجدوا فى شرا كفنى

وقام من كان أولى الناس فى عجل إلى المغسل يأتينى يغسلنى

وقال يا قوم نبغى غاسلاً حذقاً حرًا أديبا أريبا عارفا فطِنى

فجاءنى رجل منهم فجردنى من الثياب وأعرانى وأفردنى

وأطرحونى على الألواح منفرداً وصار فوقى خرير الماء ينظفنى

وأسكب الماء من فوقى وغسلنى غسلاً ثلاثاً ونادى القوم بالكفنى

وألبسونى ثياباً لا كمام لها وصار زادى حنوطاً حين حنطنى

وقدمونى إلى المحراب وانصرفوا خلف الإمام فصلى ثم ودعنى

صلّوا علىّ صلاة لا ركوع لها ولا سجود لعل الله يرحمنى

وأنزلونى فى قبرى على مهل وأنزلوا واحداً منهم يلحدنى

وكشف الثوب عن وجهى لينظرنى وأسبل الدمع من عينيه أغرقنى

فقام محترماً بالعزم مشتملاً ... وصفف اللَّبن من فوقى وفارقنى
وقالوا هلوا عليه التراب واغتنموا ... حسن الثواب من الرحمن ذى المنن
فى ظلمة القبر لا أم هنا ولا ... أب شفيق ولا أخ يؤنسنى
وأودعونى ولجوا فى سؤالهموا ... ما لى سواك إلهى من يخلصنى
وهالنى صورة فى العين إذ نظرت ... من هول مطلع ما قد كان أدهشنى
من منكر ونكير ما أقول لهم ... إذ هالنى منهما ما كان أفزعنى
فامنن على بعفو منك يا أملى ... فإننى موثق بالذنب مرتهن
تقاسم الأهل مالى بعد ما انصرفوا ... وصار وزرى على ظهرى فأثقلنى
فلا تغرنك الدنيا وزينتها ... وانظر إلى فعلها فى الأهل والوطن
وانظر إلى من حوى الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغيز الزاد والكفن
خذ القناعة من دنياك وارض بها ... لو لم يكن لك إلا راحة البدن
يا نفس كفى عن العصيان واكتسبى ... فعلاً جميلاً لعل الله يرحمنى

حديث البراء بن عازب في قبض روح المؤمن والكافر

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبى ﷺ فى جنازة رجل من لأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله ﷺ مُستقبِل القبلة وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير وفى يده عود ينكت فى الأرض فجعل ينظر إلى نسماء وينظر إلى الأرض وجعل يرفع بصره ويخفضه ثلاثاً . فقال: « استعيذوا بالله من عذاب القبر » . مرتين أو ثلاثاً . ثم قال: « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر » ثلاثا . ثم قال: « إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط [١] من حنوط الجنة . حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة (وفى رواية: المطمئنة) . اخرجى اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السقاء . فيأخذها (وفى رواية : حتى إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء وفتحت له أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج بروحه من قبَلِهم) فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط فذلك قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾[الأنعام] . ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجِدت على وجه الأرض. قال: فيصعدون بها فلا يمُرُّون يعنى : بها على ملأ من الملائكة . إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون : فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يُسمُّونه بها فى الدنيا . حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدى فى عليين ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾[المطففين]. فيكتب كتابه

(١) الحنوط : ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة .

فى عليين ثم يقال: أعيدوه إلى الأرض فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . قال: فيرد إلى الأرض وتعاد روحه فى جسده. قال: فإنه يسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه مدبرين فيأتيه ملكان شديدان الانتهار فينهرانه ويجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول ربى الله . فيقولان له : ما دينك ؟ من نبيك ؟ .وهى آخر فتنة تعرض على المؤمن فذلك حين يقول الله عز وجل : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. فيقول : ربى الله ودينى الإسلام ونبى محمد ﷺ . فينادى مناد فى السماء: أن صدق عبدى فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره قال: ويأتيه (وفى رواية :يمثل له) رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذى يسُرك أبشر برضوان الله وجنات فيها نعيم مقيم هذا يومك الذى كنت توعد . فيقول له: وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فوجهك الوجه يجىء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح فوالله ما علمتك إلا كنت سريعاً فى إطاعة الله بطيئاً فى معصية الله فجزاه الله خيراً ثم يفتح له باب من الجنة وباب من النار فيقال : هذا منزلك لو عصيت الله أبْدلك الله به هذا فإذا رأى ما فى الجنة قال: رب عجل قيام الساعة كيما أرجع إلى أهلى ومالى فيقال له : أُسْكُن .

قال : وإن العبد الكافر (وفى رواية : الفاجر) إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة . نزل إليه من السماء ملائكة غلاظ شداد سود الوجوه معهم المسوح (١) من النار فيجلسون منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه .فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب . قال فتتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول فتنقطع معها

(١) المسوح : جمع المِسح وهو كساء غليظ من الصوف أو الشعر . .

نعروق والعصب فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء وتغلق أبواب السماء .ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ألا تعرج روحه من قبلهم فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا فيستفتح به فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** (١) ﴾ [الأعراف: ٤٠] .

فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى ثم يقال : أعيدوا عبدى إلى الأرض فإنى وعدتهم أنّى منها خلقهم ومنها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . فتطرح روحه من السماء طرحاً حتى تقع فى جسده ثم قرأ : ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** (٣١)﴾ [الحج] . فتعاد روحه فى جسده .قال: فإنه ليسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه فيقولان له: من ربك ؟ فيقول: ها هاه هى كلمة تقال فى الضحك وفى الإيعاد وقد تقال للتوجع وهو أليق بمعنى الحديث والله أعلم لا أدرى فيقولان له: ما دينك ؟ فيقول: ها هاه لا أدرى . فيقولان : فما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فلا يهتدى لاسمه فيقال : محمد . فيقولك ها هاه لا أدرى سمعت الناس يقولون ذلك . قال: فيقال : لا دريت ولا تلوت . فينادى منادٍ من السماء أن كذب . فافرشوا له من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه .(وفى رواية: ويمثل له) رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن

(١) الخياط : أى ثقب إبرة .

الريح. فيقول : أبشر بالذى يسوؤك. هذا يومك الذى كنت توعد فيقول: وأنت فبشرك الله بالشر من أنت ؟ فوجهك الوجه يجىء بالشر .فيقول: أنا عملك الخبيث فوالله ما علمتك إلا كنت بطيئاً عن طاعة الله سريعاً إلى معصية الله فجزاك الله شراً ثم يُقَيَّضْ له أعمى أصم أبكم فى يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان تراباً فيضربه ضربة حتى يصير بها تراباً ثم يعيده الله كما كان . فيضربه ضربة أخرى فصيح صيحة يسمعه كل شىء إلا الثقلين ثم يفتح له باب من النار ويمهد له فراش من النار ».

أين مستقر الأرواح بعد الموت

اختلف فى مستقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة والراجح فى ذلك أن لأرواح متفاوتة فى مستقرها فى البرزخ أعظم تفاوت فمنها أرواح فى أعلا عليين فى لملأ الأعلى وهى أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وهم متفاوتون في منازلهم أعظم تفاوت كما رآهم النبى ﷺ ليلة الإسراء ومنها أرواح فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت وهى أرواح بعض الشهداء لا جميعهم .

كما روى عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ قال: « إن أرواح الشهداء فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة تحت العرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعه فقال: هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا: أى شيء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا فيفعل ذلك بهم ثلاث مرات. فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن تُريد أرواحنا فى أجسادنا حتى نرجع إلى الدنيا فنقتل فى سبيلك مرة أخري. فلما رأى أنه ليس لهم حاجة تُركوا » .

رواه مسلم والترمذى

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :« إن أرواح الشهداء فى طيـر خضر تعلق من ثمار الجنة » . [رواه الترمذى صحيح الجامع [١٥٥٥] السلسلة الصحيحة ٩٩٥].

بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخوله الجنة لدين ليه أو غيره كما فى المسند من عبد الله بن جحش أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله ما لى إن قتلت فى سبيل الله ؟ قال:« الجنة : فلما ولى قال: إلا الدين سارنى به جبريل آنفا » . ومنهم من يكون محبوساً على باب الجنة ومنهم من يكون محبوساً فى قبره كحديث صاحب الشملة التى غلها ثم قتل. فقال النبى ﷺ :« والذى نفسى بيده إن الشملة التى غلها لتشتعل عليه ناراً فى قبره » . رواه البخارى ومسلم.

ومنهم من يكون مقره باب الجنة كما فى حديث ابن عباس: « الشهداء على بارقة نهر باب الجنة فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة غدواً وعشياً ».
[رواه الإمام أحمد والطبرانى . صحيح الجامع [٣٧٤٢] .

وهذا بخلاف جعفر بن أبى طالب. حيث أبدله الله من يديه بجناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء . فعن ابن عباس ﷺ قال: قال النبى ﷺ : [دخلت الحبشة البارحة فنظرت فيها فإذا جعفر يطير مع الملائكة وإذا حمزة متكئ على سريرة]. رواه الطبرانى. صحيح الجامع[٣٣٥٨].

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « رأيت جعفر بن أبى طالب ملكا يطير فى الجنة مع الملائكة بجناحين » [رواه الترمذى والحاكم . صحيح الجامع (٣٤٥٩)] .

ومنهم من يكون محبوساً فى الأرض لم تعلوا روحه إلى الملأ الأعلى فإنها كانت روحاً سفلية . ومنها أرواح فى تنور الزناة والزوانى وأرواح فى نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة .

فعن سَمُرة بن جندب قال: كان رسول الله ﷺ يعنى مما يكثر أن يقول لأصحابه: « هل رأى أحد منكم من رؤيا ؟ » قال: فيقص عليه ما شاء الله أن يقص. وإنه قال لنا ذات غداة : [إنه أتانى الليلة آتيان وإنهما ابتعثانى وإنهما قالا لى: انطلق: وإنى انطلقت معهما وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فيثلغ [١] رأسه فيتدهده [٢] الحجر هاهنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثلما فعل به المرة الأولى] . قال: [قلت لهما : سبحان الله ما هذا ؟ قالا لى : انطلق . انطلق . فانطلقنا . فأتينا على رجل مستلق لقفاه . وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد وإذا هو يأتى أحد شقى وجهه فيشرشر [٣] شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه . قال: وربما قال أو رجاء ـ فيشق » قال: « ثم يتحول إلى الجانب

---

(١) يثلغ : أى يشدخه . (٢) يتدهده : يدفعه من علو إلى أسفل .
(٣) يشرشر : أى يقطعه شقاً .

لآخر فيفعل به مثلما فعل بالجانب الأول .فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ثم يعود عليه فيفعل مثلما فعل المرة الأولى» .قال: «قلت : سبحان الله . ما هذا ؟» قالا لى : انطلق . انطلق . فانطلقنا . فأتينا على مثل لتنور وأحسب أنه كان يقول: فإذا فيه لغط وأصوات» . قال: «فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم .فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا» [1] .

قال: «قلت لهما: ما هؤلاء ؟» قال: «قالا لى انطلق . انطلق» قال: «انطلقنا فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول : «أحمر مثل الدم» .وإذا فى النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ثم يأتى ذلك الذى قد جمع عنده الحجارة فيغفر له فاه فألقمه حجرا فينطلق. يسبح ثم يرجع إليه كما رجع إليه فغر له فاه فألقمه حجراً» .قال: «قلت لهما : ما هذان ؟» قال: «قالا لى: انطلق انطلق» .قال : «فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرآه . كأكره ما أنت راء رجلاً مرآه .وإذا عنده نار يحشها [2] ويسعى حولها». قال: «قلت لهما : ما هذا ؟» .قال: «قالا لى : انطلق انطلق. فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة [3] فيها من كل لون ربيع .وإذا بين ظهرى الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً فى السماء .وإذا حول الرجل أكثر من ولدان رأيتهم قط» .قال: «قلت لهما :ما هذا . ما هؤلاء ؟ .قال: « قالا لى : انطلق انطلق .فانطلقنا فانتهينا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن» قال: قالا لى: ارق . فارتقيت فيها» .قال : «فارتقينا فيها . فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة .فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا . فدخلناها فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وسطر كأقبح ما أنت راء » . قال : «قال لهم: اذهبوا فقعوا» .قال : «وإذا نهر معترض يجرى كأن ماءه المحض من البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة» . قال :

---

(١) ضوضوا : رفعوا أصواتهم مختلفة . (٢) يحشها : يوقدها .
(٣) معتمة : غطاها الخصب . فوصفها بشدة الخضرة . تقول نخلة عتيمة طويلة.

«قالا لى : هذه جنة عدن .وهذاك منزلك » قال: فسما بصرى صعداً . فإذا قصر مثل الربابة [١] البيضاء » قال: « قالا لى: هذاك منزلك » قال: قلت لهما : بارك الله فيكما ذارنى فأدخله قالا: أما الآن فلا وأنت داخله» . قال: « قلت لهما : فإنى قد رأيت منذ الليلة عجباً .فما هذا الذى رأيت ؟ » قال : «قالا لى : أما إنا سنخبرك :

أما الرجل الأول الذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر : فإنه الرجل يأخذ بالقرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة .

وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق .

وأما الرجال والنساء العراة الذين فى مثل بناء التنور فهم الزناة والزوانى .

وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويلقم الحجر فإنه آكل الربا وأما الرجل الكريه المرآة الذى عنده النار يحشها ويسعى حولها . فإنه مالك خازن جهنم.

وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فإنه إبراهيم ﷺ وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة » .

قال: فقال بعض المسلمين : يا رسول الله .وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ :« وأولاد المشركين .وأما القوم الذين كانوا شطراً منهم حسن وشطراً قبيح فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فجاوز الله عنهم » .رواه البخارى ومسلم.

ومنها أرواح تكون فى القبر كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: « إنها ليعذبان وما يعذبان فى كبير ثم قال : بلى إنه كبير أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة » رواه البخارى ومسلم.

---

(١) الربابة : السحابة البيضاء .

* **وخلاصة الأمر** : أنه ليس للأرواح سيعدها وشقيها مستقر واحد بل روح فى أعلى عليين وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض .

قال ابن القيم رحمه الله فى النونية :

فالشأن للأرواح بعد فراقها ... أبدانها والله أعظم شان

إما عذاب أو نعيم دائم ... قد نعمت بالروح والريحان

وتصير طيراً سارحاً مع شكلها ... تجنى الثمار بجنة الحيوان

وتظل واردة بأنهار بها ... حتى تعود لذلك الجثمان

لكن أرواح الذين استشهدوا ... فى جوف طير أخضر ريان

فلهم بذلك مزية فى عيشهم ... ونعيمهم للروح والأبدان

بذلوا الجسوم لربهم فأعاضهم ... أجسام تلك الطير بالإحسان

ولها قناديل إليها تنتهى ... مأوى لها كمساكن الإنسان

فالروح بعد الموت أكمل حالة ... منها بهذى الدار فى جثمان

هل تتلاقى أرواح الأحياء والأموات ؟

نعم إن أرواح الأحياء إذا ناموا تلاقت وأرواح الأموات كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)﴾ [الزمر] .

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ : فيه دلالة على أنها ـ الأرواح ـ تجتمع فى الملأ الأعلى . وقال بعض السلف يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ التى قد ماتت ﴿ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ .

قال ابن عباس ﵄ : إن أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى المنام فتتعارف ما شاء الله منها .[راجع مجموع الفتاوى ج ٢٤ ص ٣٠٣، و [ابن كثير ج ٤ ص ٥١ ، والقرطبى ج ١٥ ص ٢٤٩].

عن أبى أيوب الأنصارى ﷺ قال :

« إذا قبضت نفس المؤمن تلقاها أهل الرحمة من عباد الله تعالى كما يتلقون البشير فى الدنيا فيقبلون عليه فيسألونه فيقول بعضهم لبعض : انظروا أخاكم حتى يستريح فإنه كان فى كرب شديد . قال: فيقبلون عليه فيسألونه ، ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانه ؟ هل تزوجت ؟ فإذا سألوه عن الرجل قد مات قبله فيقول : إنه هلك. فيقولون : إنا لله وإنـا إليـه راجعون. ذهب إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية .

قال : فتعرض عليه أعماله فإن رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وقالوا: اللهم هذه نعمتك على عبدك فأتمها وإن رأو شراً قالوا: اللهم راجع بعبدك » السلسلة ٢٧٥٨.

وقال أبو الدرداء يقول :إن أعمالكم تعرض على موتاكم فيسرون ويساءون قال: يقول: أبو الدرداء : اللهم إنى أعوذ بك أن أعمل عملاً يخزى به عبد الله بن

رواحة .[ابن المبارك فى الزهد].

وقد خرج النسائى بسنده عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال الحديث وفيه: (فيأتون أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحاً من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه: ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانه ؟ فيقولون: دعوه فإنه كان فى غم الدنيا فإذا قال: أو ماأتاكم ؟ قالوا : ذهب به إلى أمه الهاوية » صحيح : أخرجه النسائى [١٨٣٣] فى الجنائز وقال الألبانى : صحيح السلسلة ٢٧٥٨ .

قال القرطبى :

وقد قيل فى قوله ﷺ فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم :[الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف] .إنه هذا التلاقى وقد قيل: تلاقى أرواح النيام والموتى وقيل غير هذا . « التذكرة ص٦٣ » وراجع الداء والدواء ص ٢٦ .

هل يسمع الميت الأحياء ويشعر بهم

نعم يسمع الميت فى الجملة كما ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «يسمع خفق نعالهم حتى يولون عنه » .

وثبت عن النبى ﷺ: أنه ترك قتلى بدر ثلاثاً ثم أتاهم فقال: يا أبا جهل بن هشام ! يا أمية بن خلف ! يا عتبة بن ربيعة ! يا شيبة بن ربيعة ! هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً » فسمع عمر ﷺ ذلك فقال: يا رسول الله ، كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا ؟! فقال: « والذى نفسى بيده ! ما أنت بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا» ثم أمر بهم فسحبوا فى قلب بدر » البخارى ومسلم .

وكذلك فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر :« أن النبى ﷺ وقف على قليب بدر فقال: قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ وقال : إنهم يسمعون الآن ما أقول ».

وقد ثبت فى الصحيحين من غير وجه أنه كان يأمر بالسلام على أهل القبور ويقول : « قولوا السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية . اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم » . فهذا خطاب لهم وإنما يخاطب من يسمع .

وروى ابن عبد البر عن النبى ﷺ أنه قال: « ما من رجل يمر بقبر رجل كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد عليه روحه حتى يرد عليه السلام » .

وفى السنن عنه أنه قال : « أكثروا من الصلاة علىّ يوم الجمعة وليلة الجمعة فإن صلاتكم معروضة علىّ فقالوا: يا رسول اللّه ! وكيف تعرض صلاتنا عليك؟ وقد أرمت ـ يعنى صرت رميما ـ فقال: « إن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء» .

وفى السنن أنه قال: « إن اللّه وكل بقبرى ملائكة يبلغونى عن أمتى السلام » .

فهذه النصوص وأمثالها تبين أن الموت يسمع فى الجملة كلام الحى ولايجب أن يكون السمع له دائماً .بل قد يسمع فى حال دون حال كما قد يعرض للحى فإنه قد يسمع أحيانا خطاب من يخاطبه وقد لا يسمع لعارض يعرض له وهذا السمع سمع إدراك ليس يترتب عليه جزاء ولا هو السمع المنفى بقوله: ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ [النمل: ٨٠] قال المراد بذلك سمع القبول والامتثال .فإن اللّه جعل الكافر كالميت الذى لا يستجيب لمن دعاه وكالبهائم التى تسمع الصوت ولا تفقه المعنى .فالميت وإن سمع الكلام وفقه المعنى فإنه لا يمكنه إجابة الداعى ولا امتثال ما أمر به ونهى عنه فلا ينتفع بالأمر والنهى وكذلك الكافر لا ينتفع بالأمر والنهى وإن سمع الخطاب وفهم المعنى .كما قال تعالى:

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٣] [مجموع الفتاوي لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ٢٤ ص ٣٦٣ : ٣٦٥] .

اعلم رحمك الله أن عائشة رضي الله عنها قد أنكرت هذا المعنى واستدلت بقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ [الروم: ٥٢] . وقوله : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ [فاطر: ٢٢] .

ولا تعارض بينهما لأنه جائز أن يكونوا يسمعون فى وقت ما .أو فى حال ما فإن تخصيص العموم ممكن وصحيح إذا وجد المخصص . وقد وجد هنا بدليل ما ذكرناه .وقد تقدم وبقوله عليه الصلاة والسلام :[إنه ليسمع قرع نعالهم] . وبالمعلوم من سؤال الملكين للميت فى قبره وجوابه لهما وغير ذلك مما لا ينكر . « التذكرة ص ١٤٧ » .

وقد ثبت فى الصحيحين أن الميت يستأنس بالمشيعين لجنازته بعد دفنه فروى مسلم فى صحيحه من حديث عبد الرحمن بن شماسة المهرى قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياق الموت فبكى طويلاً وحوّل وجهه إلى الجدار فجعل ابنه يقول: ما يبكيك يا أبتاه . أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ؟ فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل

ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإنى كنت على أطباق ثلاث لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضاً لرسول اللّه ﷺ منى ولا أحب أن أكون قد استمكنت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار فلما جعل الله الإسلام فى قلبى لقيت رسول الله ﷺ فقلت: ابسط يدك فلأبايعك فبسط يمينه قال: فقضبت يدى قال: فقال مالك يا عمرو؟ قال: قلت أردت أن أشترط فقال: تشترط ماذا ؟ قلت أن يغفر لى قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله وما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ولا أجل فى عينى منه وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالاً له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأنى لم أكن أملأ عينى منه ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالى فيها فإذا أنا مت فلا تصحبنى نائحة ولا نار فإذا دفنتمونى فسنوا على التراب سنا ثم أقيموا حول قبرى قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربى فدل على أن الميت يستأنس بالحاضرين عند قبره ويسر بهم .

وقد علم النبى ﷺ أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا: « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون. نسأل الله لنا ولكم العافية » . رواه مسلم عن بريدة .

وهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد وإن لم يسمع المسلم الرد وإذا صلى الرجل قريباً منهم شاهدوه وعلموا صلاته وغبطوه على ذلك .

وأيضا ما رواه عام بن سعد عن أبيه قال: «جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: إن أبى كان يصل الرحم وكان وكان فأين هو ؟ قال: « فى النار » فكأن الأعرابى وجد من ذلك فقال: يا رسول الله ! فأين أبوك ؟ قال : « حيثما مررت بقبر كافر فبشّره بالنار » .قال : فأسلم الأعرابى بعد فقال: لقد كلفنى رسول الله ﷺ تعباً: ما مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار [رواه الطبرانى السلسلة الصحيحة رقم ١٨].

وما رواه أحمد وأبو نعيم عن عمرو بن حزم قال: [رآني رسول الله ﷺ على قبره فقال انزل عن القبر لا تؤذ صاحب هذا القبر .[السلسلة ٢٩٦٠] .

وهذا كله إنما يدل على أن الأموات ليسمعون ويشعرون بالأحياء وهذا ما ذهب إليه كثير من العلماء وإن أردت الزيادة فعليك بكتاب فتح البارى ـ كتاب الجنائز ومجموع الفتاوى رقم [٢٤] وكتاب الداء والدواء والتذكرة وغيره .

ما ينتفع به العبد بعد موته

عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :« سبع يجرى للعبد أجْرهُنْ وهو فى قبره بعد موته: من علم علماً أو أجرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً أو ورَّث مصحفاً أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته » . أخرجه البزار وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع رقم [٣٥٩٦] .

وعن أبى أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :« أربعة تجرى عليهم أجورهم بعد الموت : من مات مرابطاً فى سبيل الله ومن علم علماً أُجرى له عمله ما عمل له ومن تصدق بصدقة فأجرها يجرى له ما وُجدت ورجل ترك ولداً صالحاً فهو يدعو له». رواه أحمد والطبرانى فى الكبير وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع [٨٩٠] .

وعن سلمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :« أربع من عمل الأحياء تجرى للأموات : رجل ترك عقباً صالحاً يدعو له ينفعه دعاؤهم ورجل تصدق بصدقة جارية من بعده له أجرها ما جرت بعده ورجل علَّم علمًا فعمل به من بعده له مثل أجر من عمل به من غير أن ينقص من أجره من يعمل به شيئاً] . رواه الطبرانى فى الكبير وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع [٩٠١] وقال الشيخ الألبانى فى تعليقه على صحيح الجامع [٣٠٦/١] يلاحظ أنه لم يذكر الرابع ولعله المرابط كما مرّ فى الحديث السابق [٨٩٠] ثم إننى لم أر الحديث معزوا للطبرانى أو غيره من حديث سلمان .

حكم ما يهدى للميت بعد موته

وهذه المسألة شديدة الارتباط بالنيابة فى النيات فى العبادات وقد اختلف العلماء فى ذلك بين مانع مطلقاً ومجيز مطلقا ومجيز فى بعض دون بعض : فقد ذهب إلى المنع مطلقاً الإمام مالك وأصحابه .

وذهب إلى الإجازة مطلقاً ابن تيمية فى أحد أقواله .

وذهب جماهير العلماء إلى جواز النيابة فى الحج وممن قال بذلك ابن عباس وعلى بن أبى طالب وعطاء وطاووس ومجاهد وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعى وسفيان الثورى والأوزاعى والشافعى وأحمد وابن أبى ليلى وإسحاق وأهل الظاهر وغيرهم .

ومن هؤلاء المجيزين للنيابة فى الحج من منع النيابة فى الصوم منهم الشافعى والثورى وقال بذلك ابن عمر وعائشة وأبو حنيفة .

وأجاز أحمد النيابة فى صوم النذر خاصة وهو قول ابن عباس وإسحاق وأبى عبيد والليث بن سعد .

ولقد ساق أدلة المجيزين والمانعين الشيخ عمر سلمان الأشقر فى كتابه القيم : [مقاصد المكلفين] ثم حرر محل النزاع فقال حفظه الله : « يتحرر محل النزاع . . . فالنزاع بين العلماء فى النيابة فى العبادات فى عبادتين :

الأولى: فى الصوم عن الميت الذى عليه صوم نذر أو صوم من رمضان كان يمكنه قضاؤه ثم توفى قبل أن يقضيه .

الثانية : فى الحج فى حالتين :

فى ميت لم يحج ولم يكن متعمداً للترك ولكنه كان يسوِّف ويؤجِّل فوافاه

الأجل .

وفى حىٍّ غير قادر على الحج بنفسه ولكنه قادر بغيره بأن ينفق على من يحج عنه ماله أو يجد من يطيعه من ولد أو قريب إذا أمره بالحج عنه .

الرأى الراجح :

وما ذهب إليه الجمهور من جواز النيابة فى الحج فى الحالتين المذكورين هو الرأى الراجح الذى تشهد له الأدلة كما بيَّنا ونرى أنه تجوز النيابة فيه من الولد ومن غير الولد خلافاً لمن قيّده بذلك ومذهب الإمام الشافعى في عدم جواز النيابة فى صوم الفريضة مذهب قوى إلا أننا نرجح مذهب الحنابلة فى جواز النيابة فى صوم النذر لصحّة الأحاديث فى ذلك على أن يكون النائب ولياً ولداً أو أبًا أمّا غير الولى فلا للحديث: « من مات وعليه صوم صام عنه وليه » .

ونستطيع القول بأن العبادات البدنية التى لا مدخل للمال فيها لا تجوز النيابة فيه مطلقا وهى : الوضوء والغسل والتيمم والصلاة والصوم غير المنذور .

والعبادات المالية تجوز فيها النيابة مطلقاً ولذلك أقرّ ﷺ بل حبّب فضاء الدين عن الميت فعن سلمة بن الأكوع أن النبى ﷺ أتى بجنازة فقالوا: صلِّ عليه قال: «هل ترك شيئاً ؟ » قالوا: لا . قال: « هل عليه دين ؟ » . قالوا : ثلاثة دنانير . قال: « صلّوا على صاحبكم » .قال رجل من الأنصار يقال له : أبو قتادة : صلِّ عليه يا رسول الله وعلىَّ دينُه .

وعن قتادة ﷺ نحوٌ من حديث سلمة بن الأكوع وفيه : أرأيت إن قضيتُ عنه أتصلى عليه؟ قالك : « إن قضيت عنه بالوفاء صليت عليه» قال: فذهب أبو قتادة فقضى عنه . فقال : « أوَفَّيتَ ما عليه ؟ » قال: نعم . فدعا رسول الله ﷺ فصلى عليه .

ويدل على ذلك جواز الصدقة على الميت .

أما العبادات التى فيها مدخل للمال كالحج فالراجح دخول النيابة فيها لأجل ذلك وبناءً على هذا الأصل جاز للولى أن يقوم بتفريق زكاة مال اليتيم وزكاة مال المحجور عليه لجنون أو سفه وجاز أن يفوض الرجل غيره فى التصرف فى ماله بما فى ذلك إخراج الزكاة عنه .

إهداء ثواب العبادة للأموات

هذه المسألة شديدة الارتباط بالمسألة السابقة بل إن الفقهاء يعرضون هاتين المسألتين وكأنهما مسألة واحدة .

والأقوال فيها متقاربة :

فالإمام مالك رحمه الله تعالى : منع من إهداء الثواب مطلقاً وبذلك قالت المعتزلة . [نيل الأوطار ٤/ ٩٩] .

وذهب ابن تيمية إلى جواز إهداء ثواب ما يتعبد به المرء للميت مطلقاً أى سواء أكان صلاة أم صياماً أم حجاً أم قراءة قرآن :[انظر مجموع الفتاوى ٢٦/ ١٦].

وقد نسب هذا القول إلى ابن تيمية :محمد رشيد رضا فى تفسير المنار (٨/ ٢٥٤، ٢٧٠) والألبانى فى أحكام الجنائز (ص ١٧٤) .

وقد انتصر ابن القيم لشيخه فى كتاب [الروح] وأطال الاستدلال والاحتجاج لنصرة هذا المذهب .

وأجاز الإمام أحمد وبعض الشافعية إهداء ثواب قراءة القرآن إلى الأموات .(نيل الأوطار ٤/ ٩٩).

ومنع من ذلك الشافعى رحمه الله تعالى كما منعه مالك ويرى بعض العلماء أن جواز الإهداء مقصور على الابن فيجوز له أن يهدى لأمه وأبيه ولا يجوز من غيره .

انظر : نيل الأوطار (٤/ ٩٩) تفسير المنار (٨/ ٢٥٤) أحكام الجنائز (ص١٧٤) .

حُجج المانعين :

احتج المانعون هنا بالحجج نفسها التى استدل بها مانعو النيابة فى العبادات وقد سبق ذكرها .

حجج المجيزين :

احتجوا بالنصوص التى تدل على جواز النيابة والتى ذكرناها فى المسألة السابقة وبنصوص أخرى منها :

١- عن عائشة رضي الله عنها : أن رجلاً قال: إن أمى افتُلت نفسها ولم توص وأظنها لو تكلمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدَّقْتُ عنها ؟ قال: « نعم فتصدق عنها » .

أخرجه البخارى ومسلم ومالك فى الموطأ وأبو داود والنسائى وابن ماجه والبيهقى وأحمد أحكام الجنائز ص ١٧٢ .

٢- عن ابن عباس رضي الله عنه أن سعد بن عبادة تُوفيت أمه وهو غائب عنها فقال: يا رسول الله إن أمى توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها إن تصدقت بشىء عنها ؟ قال: [نعم] .قال : فإنى أشهدك أن حائط المخراف صدقة عليها .« أى نخلاً » اخرجه البخارى والنسائى وأبو داود والترمذى والبيهقى وأحمد والسياق له .

٣- عن أبى هريرة رضي الله عنه : أن رجلاً قال للنبى ﷺ : إن أبى مات وترك مالا ولم يوص فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه ؟ قال: « نعم » .

أخرجه مسلم والنسائى وابن ماجه والبيهقى وأحمد : أحكام الجنائز ص١٧٢ .

٤- عن عبد الله بن عمرو : أن العاص بن وائل السهمى أوصى أن يعتق عنه مائة رقبة فأعتق ابنه هشام خمسين رقبة وأراد ابنه عمرو أن يعتق عنه الخمسين الباقية. قال: حتى أسأل رسول الله ﷺ فأتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله ، إن أبى أوصى أن يعتق عنه مائة رقبة وإن هشاماً أعتق عنه خمسين وبقيت عليه خمسون أفأعتق عنه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه لو كان مسلماً فأعتقتم أو تصدقتم عنه أو حججتم عنه بلغه ذلك » .

أخرجه أبو داود فى آخر كتاب الوصايا والبيهقى والسياق له وأحمد والرواية الأخرى له وإسنادهم حسن [أحكام الجنائز] .

٥- عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إذا مات الإنسان انقطع

عمله إلاَّ من ثلاث أشياء : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له ».

أخرجه مسلم والسياق له والبخارى فى الأدب المفرد ص ٨ وأبو داود والنسائى وأحمد [أحكام الجنائز ص ٣٦] .

٦ـ عن أبى قتادة قال: قال رسول الله ﷺ :« خير ما يخلف الرجل من بعده ثلاث :ولدٌ صالح يدعو له وصدقة تجري يبلغه أجرها وعلم يعمل به من بعده» أخرجه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه وابن عبد البر فى جامع بيان العلم وإسناده صحيح كما قال المنذرى فى الترغيب والترهيب (١/ ٥٨) .

٧ـ عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :« إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علَّمه ونشره وولد صالحاً تركه ومصحفاً ورثه أو مسجدا بناه أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهراً أجراه أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته يلحقه من بعد موته». اخرجه الترمذى بإسناد حسن ورواه ابن خزيمة فى صحيحه .

واحتجوا بالنصوص الدالة على مشروعية الدعاء للأحياء والأموات : كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر] .

ومن الأحاديث : « دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة . عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل » .اخرجه مسلم والسياق له وأبو داود وأحمد من حديث أبى الدرداء .

ومنها : أنه قد شرع لنا الدعاء عند زيارة القبور وفى الصلاة على الجنائز .

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :« من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء» رواه احمد ومسلم .

ومن هذا الباب أيضاً ما ورد فى الحديث :« إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علمًا علمه ونشره وولداً صالحاً تركه ومصحفاً ورثه أو مسجدًا بناه أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهراً أجراه أو صدقة أخرجها » .سبق تخريجه .

أما بقية النصوص الدالة على الصدقة فقد سبق القول بأن الأمور المالية تقبل النيابة عن الأحياء والأموات وكذلك يصح إهداء ثوابها للأموات وقد ذهب جمع من العلماء منهم الشوكانى ومحمد رشيد رضا إلى أن الصدقة التى تلحق الميت هى الصدقة الكائنة من الابن فحسب لأن لأحاديث الواردة فى الصدقة عن الميت كلها فى ذلك .

يقول الشوكانى: « وأحاديث الباب تدل على أن الصدقة من الولد تلحق الوالدين بعد موتهما بدون وصية منهما ويصل إليهما ثوابها فيخصص بهذه الأحاديث عموم قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾[النجم]. ثم استدرك قائلا: [ولكن ليس فى أحاديث الباب إلا لحوق الصدقة من الولد وقد ثبت أن ولد الإنسان من سعيه فلا حاجة إلى دعوى التخصيص وأما من غير الولد فالظاهر من العمومات القرآنية أنه لا يصل ثوابه إلى الميت فيوقف عليها حتى يأتى دليل يقتضى تخصيصها». [نيل الأوطار : ٤/ ٩٩] .

ويجاب عن ما ذكره من أن الصدقة المهداة الثواب التى تصل الميت مخصوصة بالولد بأمرين :

الأول: بالإجماع وقد نقل الإجماع النووى فى شرحه على مسلم « نيل الأوطار [٤/ ١٠٠] » وابن كثير فى تفسيره يقول ابن كثير : « أما الدعاء والصدقة فذاك مُجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما » [تفسير ابن كثير : ٦/ ٤٦٢] .

الثانى: سبق أن ذكرنا حديثين صحيحين رغب الرسول ﷺ فيهما فى قضاء دين الميت وقد قضى دينه عنه رجل من غير قرابته وأقر رسول الله ﷺ ذلك بل أمره به. سبق ذكر هذين الحديثين فى المسألة السابقة فإذا نفعه قضاء الدين عنه فإن الصدقة كذلك ولا فرق بينهما.

وما ذكره ابن النحوى من الشافعية من أنه ينبغى أن يجزم بوصول ثواب قراءة القرآن للميت إذا أهديت له لأنه دعاء غير صحيح. نيل الأوطار [٤/ ١٠٠] .

لأن القراءة ليست دعاء كلها فالقرآن فيه الدعاء والأخبار والقصص والأحكام فكيف يقال: القرآن دعاء فحسب؟! وقد ذكر ابن كثير أن الشافعي رحمه الله تعالى استنبط من قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النجم].

« أن قراءة القرآن لا يصل ثواب إهدائها إلى الموتى لأنه ليس من كسبهم وعملهم ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة ﷺ ولو كان خيراً لسبقونا إليه وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقسية والآراء ». تفسير ابن كثير [٦/ ٤٦٢] .

والحديث الذى يتعرض به فى هذا المجال : « اقرءوا على موتاكم يس » حديث ضعيف لا ينهض للاستدلال .

النظر فى هذه الأدلة :

هذه النصوص التى ساقوها لا تنهض للاستدلال على جواز إهداء الثواب إلى الميت فى كل العبادات بل إن بعضها ليس من باب الإهداء .

أ ـ فالنصوص الدالة على مشروعية الدعاء للأحياء والأموات لا مدخل لها فى هذا الباب فليست هى إهداء الثواب بل هى من باب شفاعة المسلم لغيره يقول العز ابن عبد السلام : الدعاء شفاعة جائزة من الأقارب والأجانب وليست مستثناه من هذه. يقصد النصوص المانعة من وصول عمل المرء لغيره . لأن ثواب الدعاء للداعى والمدعو به حاصل للمدعو له فإن طلب له المغفرة والرحمة كانت المغفرة والرحمة مخصوصين بالمدعو له وثواب الدعاء للداعى ونظَّر ذلك بما لو شفع إنسان لفقير فى كسوة أو فى العفو عن زلة كانت للشافع ثواب الشفاعة فى العفو والكسوة وكانت مصلحة العفو والكسوة للفقير .

ب ـ وأيضاً النصوص الدالة على انتفاع المرء بأعماله الصالحة التى استمر وجودها وانتفاع الناس بها عن بعده لا تصلح للاحتجاج بها على هبة الثواب لأنها من سعى

الإنسان وعمله أو هى آثار عمله .

يقول ابن كثير : بعد أن ساق حديث « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية من بعده أو علم ينتفع به » . يقول: فهذه الثلاث فى الحقيقة هى من سعيه وكده وعمله وكما جاء فى الحديث عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :« إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه » . رواه الترمذى والنسائى .

والصدقة الجارية . كالوقف ونحوه . هى آثار عمله ووقفه . وقد قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ... ﴾ [يس: ١٢] .

والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضاً من سعيه وعمله .

مقاصد المكلفين للشيخ عمر سليمان الأشقر ص ٢٩٠ ـ ٢٩٥ .

خوف السلف من سوء الخاتمة

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله :

وكان يشتد خوف السلف من سوء الخواتيم .ومنهم من كان يقلق من ذكر السوابق وقد قيل إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم . يقولون : بماذا يختم لنا ؟ وقلوب المقربين معلقة بالسوابق .يقولون : ماذا سبق لنا ؟

قال سفيان لبعض الصالحين : هل أبكاك قط علم الله فيك ؟ فقال له ذلك الرجل: تركنى لا أفرح أبداً .

وكان سفيان يشتد قلقه من السوابق والخواتيم فكان يبكى ويقول:

أخاف أن أكون فى أم الكتاب شقياً .ويبكى ويقول : أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت .

وكان مالك بن دينار يقوم طول ليله قابضاً على لحيته ويقول : ياربِّ قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار ففى أى الدارين منزل مالك ؟ جامع العلوم والحكم ص٥٠ .

وقال حاتم الأصم : من خلا قلبه من ذكر أربعة أخطار فهو مغتر فلا يأمن الشقاء : الأول خطر يوم الميثاق حين قال : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى فلا يعلم فى أي الفريقين كان والثانى حين خلق فى ظلمات ثلاث فنادى الملك بالشقاوة والسعادة ولا يدرى أمن الأشقياء هو أم من السعداء والثالث ذكر هول المطلع فلا يدرى أيبشر برضاء الله أم بسخطه والرابع يوم يصدر الناس أشتاتا فلا يدرى أى الطريقين يسلك به وقال سهل التسترى : المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصى والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر .

ومن هنا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم من النفاق ويشتد قلقهم وجزعهم منه فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر كما تقدم أن دسائس السوء

الخفية توجب سوء الخاتمة ، وقد كان النبى ﷺ يكثر أن يقول فى دعائه : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك فقيل له : يا نبى الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ فقال: نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل يقلبها كيف يشاء » .

خرجه الإمام أحمد والترمذى من حديث أنس وخرج الإمام أحمد من حديث أم سلمة أن النبى ﷺ كان يكثر فى دعاء أن يقول : « اللهم يا مقلّب القلوب ثبت قلبى على دينك فقلت : يا رسول الله وإن القلب ليُقلب ؟ قال: نعم ما من خلق الله من بنى آدم من بشر إلا أنّ قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل فإن شاء الله عز وجل أقامه وإن شاء أزاغه فنسأل الله ربنا أن لا يُزغ قلوبنا بعد إذ هدانا ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب . قالت : قلت: يا رسول الله ألا تعلمنى دعوة أدعو بها لنفسى ؟ قال: بلى قولى : اللهم رب النبى محمد ﷺ اغفر لى ذنبى وأذهب غيظ قلبى وأجرْنى من مضلات الفتن ما أحييتنى » .

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق : واعلم أن لسوء الخاتمة أعاذنا الله منها أسباباً ولها طرق وأبواب أعظمها الإنكباب على الدنيا والإعراض عن الآخرة والإقدام والجرأة على معاصى الله عز وجل وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ونوع من المعصية وجانب من الإعراض ونصيب من الجرأة والإقدام فملك قلبه وسبى عقله وأطفأ نوره وأرسل عليه حجبه فلم تنفع منه تذكرة ولا نجحت فيه موعظة فربما جاءه الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد فلم يتبين المراد ولا علم ما أراد وإن كرر عليه الداعى النداء . « الداء والدواء ص ٢٥٠ » .

قال القرطبى :وإذا كانت الهداية إلى الله مصروفة والاستقامة على مشيئته موقوفة والعاقبة مغيبة والإرادة غير غالبة فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خلق ربك وفضله فمهما افتخرت بذلك كنت كالمفتخر بمتاع غيره وربما سلب عنك فعاد قلبك من الخير أخلى من البعير فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم .فأصبحت وزهرها يابس

هشيم إذ هبت عليها الريح العقيم ذلك فعل العزيز الحكيم الخلاق العليم .

وأخيراً ينبغى لكل مؤمن أن يقرأ الكلمات التالية ويتفكر فيها وينظر إلى نفسه وإلى قلبه فإن كان من العاصين فليرجع إلى الرب الرحيم .« التذكرة » ١/٥٥ .

قال أبو محمد عبد الحق: واعلم أن سوء الخاتمة أعاذنا الله منها لا تكون لمن استقام ظاهرة وصلح باطنه ما سُمع بهذا ولا عُلم به ولله الحمد وإنما تكون لمن له فساد فى العقد ـ عقد السير فى طاعة الله أو إصرار على الكبائر وإقدام على العظائم فربما غلب عليه ذلك حتى ينزل به الموت قبل التوبة فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويصطلم ـ يهلك ـ قبل الإنابة فظفر به الشيطان عند تلك الصرمة ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله . « الداء والدواء ص ٢٥٠ » .

أسباب سوء الخاتمة

سوء الخاتمة . أعاذنا الله منها . لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه ما سُمع بهذا ولا عُلم به والحمد لله وإنما تكون لمن كان له فساد فى العقل أو إصرار على الكبائر أو إقدام على العظائم .فربما غلب عليه ذلك حتى ينزل به الموت قبل التوبة فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة ويختطفه عند تلك الدهشة .والعياذ بالله ثم العياذ بالله .أو يكون مستقيماً ثم يتغير عن حاله ويخرج عن سنته ويأخذ فى غير طريقه فيكون سبباً لسوء خاتمته وشؤم عاقبته . « التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة » ص٣٧ .

وسوء الخاتمة على مرحلتين :

الأولى : أن يغلب على القلب والعياذ بالله شك أو جحود عند سكرات الموت وأهواله فيقتضى ذلك العذاب الدائم وهذه أعظم .

الثانية :أن يتسخط الأقدار أو يتكلم بالاعتراض أو يجور فى وصيته أو يموت مُصراً على ذنب من الذنوب وهذه دون الأولى . « تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان ص ٣٨ » .

والأسباب التى تقضى إلى سوء الخاتمة لا يمكن انحصارها على التفصل ولكن يمكن الإشارة إلى مجامع منها بإيجاز :

١ـ الشك والجحود الذى تسببه البدعة :

ومعناها : أن يعتقد فى ذات الله تعالى أو صفاته أو أفعاله خلاف الحق إما تقليداً أو برأيه الفاسد فإذا انكشف الغطاء عند الموت بان له بطلان ما اعتقده فظن أن جميع ما اعتقده لا أصل له .

وكم ختم لكثير من البشر بهذا عندما ابتدعوا فى دين الله عز وجل وزاغوا وانحرفوا عن صراط الله المستقيم وظهرت حقيقتهم فى أول لقاء لهم مع رب العالمين سبحانه.

هذا ابن الفارض عمر بن على الحموى (المتوفى سنة ٦٣٢هـ) والذى كان ينعق بالاتحاد ويقول بحلول الله جل وعلا فى خلوقاته وأن العبد رب والرب عبد عندما احتضر كما قال الأئمة الثقات الذين شاهدوه فى حالة الاحتضار نظم بيتين من الشعر وهو فى تلك الحالة يعبر فيها عن شقوته وعن هلاكه ويبكى ويقول:

إن كان منزلتى فى الحب عندكم ... ما قد رأيت فقد ضيعت أيامى

أمنيـة ظفـرت نفسـى بـهـا زمنـاً ... واليوم أحسبها أضغاث أحلامى

« سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٣٦٨» .

وقال ذلك عندما عاين سخط الله جل وعلا وكشف له عن حقيقة أمره وقلَّ أن يختم لمبتدع فى دين الله تعالى بالإيمان ونسأل الله السلامة والعافية .

٢ـ التسويف بالتوبة :

والتوبة إلى الله عز وجل من جميع الذنوب واجبة على كل مكلف كل لحظة قال سبحانه : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾ [النور] .

وكان ﷺ وهو مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يتوب إلى الله تعالى كل يوم مائة مرة كما قال عليه الصلاة والسلام :« يا أيها الناس توبوا إلى الله فإنى أتوب فى اليوم إليه مائة مرة » رواه مسلم .

وإن من أنجح حيل إبليس التى يحتال بها على الناس التسويف فى التوبة فيوسوس للعاصى بأن يتمهل فى التوبة فإن أمامه زمناً طويلاً ولو تاب الآن ثم رجع لا يمكن أن تقبل توبته بعد ذلك فيكون من أصحاب النار أو يوسوس له بأنه إذا بلغ الخمسين أو الستين مثلاً فعليه أن يتوب توبة نصوحاً ويلزم المسجد ويكثر القربات . أما الآن فإنه فى شبابه وزهرة عمره فليمتع نفسه ولا يشق عليها بالتزام الطاعات من الآن .

فهذه بعض مكائد إبليس التسويف بالتوبة قال بعض السلف الصالح: أنذركم سوف فإنها أكبر جنود إبليس ومَثل المؤمن الحازم الذى يتوب إلى الله من كل ذنب

وفى كل وقت خوفاً من سوء الخاتمة ومحبة لله والمفرط المسَّوف الذى يؤخر توبته كمثل قوم فى سفر دخلوا قرية فمضى الحازم فاشترى ما يصلح لتمام سفره وجلس متأهبًا للرحيل .

أما المفرط فإنه يقول كل يوم : سأذهب غدًا حتى أعلن أمير القافلة الرحيل ولازاد معه وهذا مثل للناس فى الدنيا فإن المؤمن الحازم متى جاء الموت لم يندم أما العاصى المفرط فإنه يقول:

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] « رسالة حسن الخاتمة » للشيخ/ عبد الله بن محمد المطلق.

٣ ـ طول الأمل :

وهو سبب شقاء كثير من الناس حين يخدعهم الشيطان فيصور لهم أن أمامهم عمراً طويلاً .وسنين متعاقبة يبنون فيها آمالاً شامخة فيجمعون همتهم لمواجهة هذه السنين ولبناء هذه الآمال وينسى الآخرة ولا يتذكر الموت وإذا ذكره يوماً بَرَمَ منه لأنه فى ظنه ينغص عليه لذاته ويكدر عليه صفو عيشه .

كان على بن أبى طالب ﷺ يشتد خوفه من اثنين : طول الأمل واتباع الهوى. يقول: « فأما طول الأمل فينسى الآخرة وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق » .وكان يقول : « ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة والآخرة قد أسرعت مقبلة ولكل واحدة منها بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل» فإذا أحب الإنسان الدنيا أكثر من الآخرة آثرها عليها واشتغل بزينتها وزخرفها وملذاتها عن بناء مسكنه فى الآخرة فى جوار الله تعالى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

ويظهر أثر قصر الأمل فى المبادرة إلى الأعمال الصالحة واغتنام أوقات العمر فإن الأنفاس معدودة والأيام مقدرة وما فات لن يعود .

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك . رواه البخارى .

وقد أرشد رسول الله ﷺ المؤمنين إلى ما يبعد عنهم طول الأمل ويبصرهم بحقيقة الدنيا فأمر بتذكر الموت وبزيارة القبور وبتغسيل الموتى وتشييع الجنائز وعيادة المرضى وزيارة الصالحين فإن كل هذه الأمور توقظ القلب من غفلته وتبصره بما سيقدم عليه فيستعد له ويحمل ذلك على الاجتهاد فى العمل الصالح ويبغض إليه الركون إلى الشهوات المحرمة فى الدنيا التى سيذهب عنها لا محالة . راجع رسالة (حسن الخاتمة) للشيخ عبد الله بن محمد المطلق .

٤ ـ حب المعصية وإلفها واعتيادها :

فإذا ألف الإنسان المعصية ولم يتب منها فإن الشيطان يستولى على تفكيره حتى فى اللحظات الأخيرة من حياته فإذا أراد أقرباؤه أن يلقنوه الشهادة ليكون آخر كلامه لا إله إلا الله طغت هذه المعصية على تفكيره فتكلم بما يفيد انشغاله بها وختم له بالسوء عياذاً بالله تعالى من ذلك .

أفلا يخشى الذين يتركون الصلاة تلو الصلاة ثم يوعظون فلا يستجيبون ألا يخشى هؤلاء أن يختم لهم بالسوء . ألا يخشى الذين يتعاملون بالربا ثم لا يتوبون ولا يذَّكرون أن يتخطفهم الموت وهم على هذا الجرم العظيم والذنب الكبير .

وأما إذا تاب العبد من المعصية توبة نصوحاً فإنه يرجى له الخير بإذن الله ولذلك قال علماؤنا : انكسار المذنب خير من صولة المطيع أي من عجبه بنفسه وإجلاله لها. ورب معصية أورثتك ذلاً وانكساراً خير من طاعة أوثتك عزاً واستكباراً .

جاء فى ترجمة العبد الصالح أبان بن أبى عياش رحمه الله أنه قال: خرجت من عند أنس بن مالك رضي الله عنه لما كان فى البصرة بعد الظهر فرأيت جنازة يحملها أربعة نفر

فقط فقلت: سبحان الله رجل مسلم يموت ويمر بسوق البصرة لا يشهده إلا أربعة نفر والله لأشهدن هذه الجنازة .يقول: فحملت معهم ثم لما دفنا الرجل قلت لهم: ما شأنكم ؟ قالوا: استأذنتنا تلك المرأة لدفن هذا الرجل يقول: فذهبت إليها وقلت :يا أمة الله ما شأن هذا الرجل ؟ قالت: إنه ولدي وكان مسرفاً على نفسه بعض الأحيان فقال: يا أماه إذا أنا متُّ فلقينني كلمة التوحيد في حال الاحتضار فإذا قلتها وقضيت حياتى فضعى قدمك على خدى وقولى هذا جزاء من عصى الله ولا تخبري أحدًا بموتى فهم يعلمون عصيانى ولن يشهدوا جنازتى ثم إذا دفنت فارفعى يديك إلى الله وقولى : يا رب إنى راضية عن ولدى فارض عنه فلما سألها أبان بن أبى عياش عن هذا ضحكت فقالت ما الذى يضحك يا أمة الله ؟ قالت: والله إنى رفعت يدى إلى الله بعد أن دفن ابنى وقلت : يا رب إنى راضية عنه فارض عنه وفعلت ما أوصانى به فسمعته ينادينى : يا أماه قدمت على رب رحيم كريم غير غضبان عليّ ولا ساخط . « تهذيب التهذيب » لابن حجر ١/ ٩٧ .

فإذا كان فى النفس انكسار وخضوع وتذلل للواحد القهار فسوف يظهر ذلك عند الاحتضار وإن كان فيها غير ذلك فنعوذ بالله تعالى من سخطه وغضبه .

٥ ـ الانتحار :

فإذا أصاب المسلم مصيبة فصبر واحتسب كان له أجرا وإن جزع وتضايق من الحياة ورأى أن أحسن طريق له يتخلص به من هذه الأمراض والمشاكل هو الانتحار فقد اختار المعصية وأسرع إلى غضب الله تعالى .وقتل نفسه بدون حق .

عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :« الذى يخنق نفسه يخنقها فى النار والذى يطعن نفسه يطعنها فى النار» .رواه البخارى .

وعن سهل بن سعد الساعدى ﷺ أن النبى ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره ومال الآخرون إلى عسكرهم وفى أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدعُ شاذّة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه فقيل : ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان . فقال رسول الله ﷺ : « أما إنه من أهل النار » .

فقال رجل من القوم : أنا صاحبه. قال: فخرج معه كلما وقف وقف معه وإذا أسرع أسرع معه قال: فجرح الرجل الرجل جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله . قال:« وما ذاك » قال الرجل : الذى ذكرت آنفاً أنه من أهل النار فأعظم الناس ذلك . فقلت : أنا لكم به فخرجت فى طلبه ثم جُرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه فى الأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه . فقال رسول الله ﷺ عند ذلك :« إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهومن أهل الجنة » . رواه البخارى ومسلم .

سادساً : النفاق :

وهو اختلاف السريرة والعلانية أى اختلاف الظاهر مع الباطن واختلاف القول مع العمل .

فإذا ظهر التباين والاختلاف فالإنسان منافق وإذا كان الإنسان من المنافقين المرائين المخادعين فكيف سيلقى الله عز وجل فى حال الاحتضار وفى شدة الموت وسكراته والذى هو أعظم كرب يمر على الإنسان منذ أن خلقه الله عز وجل .

قال أحد السلف : إذا استوى ظاهر المسلم وباطنه فهذا هو الإنصاف والعدل وإذا كان الباطن خيراً من الظاهر فهذا هو الفضل وإذا كان الظاهر خيراً من الباطن فهذا هو الجور .

وكان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق ويشتد قلقهم وجزعهم منه فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يسأل صاحب سر النبى ﷺ فى الفتن والمنافقين حذيفة بن اليمان رضي الله عنه فيقول: أسألك بالله هل سمانى رسول الله ﷺ من المنافقين ؟ فيقول حذيفة : لا ولا أؤمن أحدًا بعدك وفى مسند البزار بسند صحيح عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : أنه دخل على أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها فقال: إني أكثر قريش مالاً وإنى أخشى أن يهلكنى مالى فقالت: تصدق

فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن من أصحابي منْ لا يراني بعد أن أفارقه» فخرج عبد الرحمن بن عوف وهو متقطع قلبه من الخوف فالتقى بعمر رضي الله عنه وأخبره بالأثر فدخل على أم سلمة فقال :أسألك بالله : هل أنا منهم ؟ فقالت لا ولا أبرئ أحداً بعدك .

أخي المسلم :

هذه بعض من أسباب سوء الخاتمة وإنني لأحذر نفسي وإياكم أن يكون فينا سبب من هذه الأسباب فأعد ما يصلح لها وإياك والتسويف بالاستعداد فإن العمر قصير وكل نفس من أنفاسك بمنزلة خاتمتك لأنه يمكن أن تخطف فيه روحك والإنسان يموت على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه .وسيأتي بإذن الله ذكر لبعض الحوادث الدالة على سوء الخاتمة لعل النفس تعتبر بحال من مضى من مصارع القوم فإن في ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

أمثلة من علامات سوء الخاتمة:

العلامات الدالة على سوء الخاتمة كثيرة فبعضهم يظهر عليه ذلك عند اشتداد المرض فيقع في التسخط والاعتراض على قضاء الله .**عياذاً بالله تعالى من ذلك .**

ومنهم من يتلفظ عند احتضاره بكلام يغضب المولى عز وجل أو يحال بينه وبين كلمة التوحيد .

وبعضهم ربما ظهر عليه ذلك عند تغسيله كالتغير في اللون ونحو ذلك ومنهم من تظهر عليه عند إنزاله في قبره والبعض الآخر بعد دفنه في قبره وسأذكر فيما يلي بعض الحوادث الدالة على سوء الخاتمة لعل ذلك العبرة والعظة .

*** قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله :**

« قال عبد العزيز بن أبي روَّاد : حضرْت رجلاً عند الموت يلقن الشهادة : لا إله إلا الله فقال في آخر ما قال :هو كافر بما تقول ومات على ذلك قال فسألت عنه فإذا هو مدمن خمر وكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب فإنها هي التي أوقعته » .

«تهذيب التهذيب ٦/ ٣٣٨ ، وسير أعلام النبلاء ٧/ ١٨٤» .

* ومنذ سنوات جرت حادثة فى القصيم وتطايرت أخبارها هنا وهناك وحاصلها أن رجلاً فى حال احتضاره ظهر عليه من الاعتراض على ربه ما ظهر فجاء بعض أصحابه ممن كان يصلى معه فى المسجد والله أعلم بما فى القلوب وقال: يا عبد الله هذا المصحف الذى كنت تقرأ فيه فاتق الله فى نفسك ولقنه كلمة التوحيد فقال: هو كافر بالمصحف وبـ لا إله إلا الله وختم له على ذلك الحال . فتعوذ بالله تعالى من الخذلان .

* قال ابن أبى الدنيا رحمه الله: « حدثنى أبو الحسن بن أحمد الفقيه قال: نزل الموت برجل كان عندنا فقيل له : استغفر الله فقال: ما أريد فقيل له: قل لا إله إلا الله فقال: ما أقول لجهد جهده ثم مات» .

وسمعت أن رجلاً كان كثير الصوم والتعبد اشتد به الألم فافتتن فسمعته يقول: لقد قلبنى فى أنواع البلاء فلو أعطانى الفردوس ما وفّى بما يجرى علىّ ثم صار يقول: وأى شىء فى هذا الابتلاء من المعنى إن كان موتاً فيجوز فأمّا هذا التعذيب فأى شىء المقصود به] . تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان ص ٤٥ .

هذا مما جاء من الحوادث الدالة على سوء الخاتمة حال الاحتضار .

أما ما ظهر عند التغسيل فكثير جداً :

* يقول الشيخ القحطانى فى محاضرة له : « إن بعض الأموات عندما كنت أغسلهم كان بعضهم تنقلب بشرته إلى السواد وبعضهم يقبض يده اليمنى وبعضهم يدخل يده فى فرجه وبعضهم تشم رائحة الشواء تخرج من فرجه وبعضهم تسمع كأن أصياخا من نار أدخلت فى فرجه .

يقول :ولقد جىء بميت فلما ابتدأنا بتغسيله انقلب لونه كأنه فحمة سوداء وكان قبل ذلك أبيض البشرة .فخرجت من مكان التغسيل وأنا خائف فوجدت رجلاً واقفاً فقلت له : هذا الميت لكم ؟ قال: نعم قلت أنت أبوه ؟ قال: نعم . قلت: ما شأن

هذا الرجل ؟ قال: هذا الرجل كان لا يصلى . فقلت له : خذ ميتك فغسله .

« تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان ص ٤٧ » .

وأما ما ظهر عند الإنزال إلى القبر فمنه :

* قال الشيخ القحطانى : «خرجت ذات يوم من المقبرة بعد صلاة العصر وكنا قد قبرنا رجلاً وكان الطين عالقاً فى يدى فأردت أن أغسلها إذ جاءت جنازة فقال أحدهم وكانوا فى حدود الخمسين رجلاً : بالله عليك أن تساعدنا فى قبر هذا الرجل فوالله لا نحسن القبر فسَلَلْتُ الرجل من جهة الرجلين وكان ثقيلاً فأعاننى عليه بعضهم فوضعته فى القبر وطلبت لبنة أضعها تحت رأسه وقد حللت الأربطة فنظرت فإذا برأس هذا الميت قد تحول عياذاً بالله من القبلة هكذا فحول الشيخ رأسه فقمت برد هذا الميت إلى القبلة وأخذت اللبنة الثانية ولكنى فى هذه المرة وجدت عينيه قد فتحنا وأنفه وفمه يصبان الدم الأحمر القانى فداخلنى الخوف والوجل حتى إن رجْلَىّ لم تستطعا أن تحملانى داخل القبر وقد رأى معى اثنان أو ثلاثة هذا المشهد الغريب الخطير ثم أعطونى اللبنة الثالثة فوجدت أنه تحول فى المرة الثالثة فتركته وهربت من القبر نهائياً فقام الذين كانوا معى وتولوا عملية الدفن فردموه بالتراب ولم يغلقوا اللحد من شدة الخوف ثم صرتُ أرى هذا الميت فى المنام سبع أو ثمانى مرات حتى سكن الله قلبى عندما ذهبت إلى العمرة وجلست هناك فى حدود خمسة عشر يوماً حتى نسيت وعدت إلى الرياض . تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان ص ٤٨ـ ٤٩ .

وقال القرطبى رحمه الله فى التذكرة :

« ولقد أخبرنى صاحبنا أبو عبد الله محمد بن أحمد القصرى رحمه الله أنه توفى بعض الولاة بقسطنطينية فحفر له فلما فرغوا من الحفر وأرادوا أن يدخلوا الميت القبر إذا بحية سوداء داخل القبر فهابوا أن يدخلوه فيه فلم يزالوا يحفرون له نحواً من ثلاثين قبراً وإذا بتلك الحية تتعرض لهم فى القبر الذي يريدون أن يدفنوه فيه فلما أعياهم ذلك سألوا : ما يصنعون ؟ فقيل لهم : ادفنوه معها نسأل الله السلامة والستر فى الدنيا والآخرة» . « التذكرة » ص ٧٤ .

أمَّا ما ظهر من علامات بعد الدفن فمن ذلك :

*** قال ابن القيم رحمه الله فى كتابه « الروح » :**

« وحدثنى صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الرزيز الحرانى أنه خرج من داره بعد العصر بآمد إلى بستان قال : فلما كان قبل غروب الشمس توسطت القبور فإذا بقبر منها وهو جمرة نار مثل كوز الزجاج والميت فى وسطه فجعلت أمسح عينى وأقول : أنائم أنا أم يقظان ؟ ثم التفتُ إلى سور المدينة وقلت : والله ما أنا بنائم ثم ذهبت إلى أهلى وأنا مدهوش فأتونى بطعام فلم أستطع أن آكل ثم دخلت البلد فسألت عن صاحب القبر فإذا به مكّاسٌ « المكاس: صيغة مبالغة على وزن فعال وهو الذى يجبى مالا يستحق من الضرائب الجائزة ـ ثم توفى ذلك اليوم» .[الروح ص ١١٩] .

نعوذ بالله من سوء الختام ونسأله سبحانه أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا وأن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب .

أمثلة من الواقع المعاصر على سوء الخاتمة

١ـ هذه قصة مؤلمة ذكرها الشيخ أحمد القطان فى محاضرة له :

يقول الراوى الذى نقل عنه الشيخ :

صحبنا على ظهر سفينة نجول بها حول البلدان طلباً للرزق شاب صالح نقى السريرة طيب الخلق كنا نرى التقى يلوح فى قسمات وجهه والنور والبشر يرتسمان على محياه لا تراه إلا متوضئاً مصلياً أو ناصحاً مرشداً إن حانت الصلاة أذن لنا وصلى بنا فإن تخلف أحد عنها أو تأخر عاتبه وأرشده وكان معنا على هذه السجية طيلة أسفارنا وألقى بنا البحر إلى جزيرة من جزر الهند فنزلنا إليها وكان مما تعود عليه البحارة أن يستقروا أياما يرتاحون فيها ويستجمون بعد عناء السفر الطويل يتجولون فى أسواق المدينة ليشتروا أعزب ما يجدون فيها لأهلهم وأبنائهم ثم يرجعون إلى السفينة فى الليل وكان منهم نفر ممن وقع فى الضلال يتيمم أماكن اللهو والهوى ومحال الفجور والبغاء وكان ذلك الشباب الصالح لا ينزل من السفينة أبداً بل يقضى هذه الأيام يصلح فى السفينة ما احتاج منها إلى إصلاح فيفتل الحبال ويلفها ويقدم الأخشاب ويشدها ويشتغل بالذكر والقراءة والصلاة وقت ذاك .

قال الراوى : وعينه ترقرق بالدموع وتنحدر على لحيته : وفى إحدى السفرات وبينما كان الشاب منشغلاً بأعماله تلك إذ بصاحب له فى السفينة ممن أتبع نفسه هواها وانشغل بطالح الأمور عن صالحها وبسافل الأخلاق عن عاليها يهامسه ويقول:

صاحبى لم أنت جالس فى السفينة لا تفارقها ؟ لم لا تنزل حتى ترى دنيا غير دنياك ؟ ترى ما يشرح الخاطر ويؤنس النفس . أنا لم أقل لك تعالى إلى أماكن البغاء وسخط الله ولا إلى البارات وغضب الله هيهات يا صاحبى لكن تعال فانظر إلى مُلاعِب الثعابين كيف يتلاعب بها ولا يخافها وإلى راكب الفيل كيف يجعل من

خرطومه له سلما ثم يصعد برجليه ويديه حتى يقيمه على رجل واحدة وآه لو رأيت من يمشى على المسامير أنى له الصبر ومن يلقم الجمر كأنما هو تمر ومن يشرب ماء البحر فيسيغه كما يسيغ الماء الفرات ، يا أخى ، انزل وانظر الناس فتحركت نفس الشاب شوقاً لما سمع فقال: وهل فى هذه الدنيا ما تقول ؟

قال صاحب السوء : نعم وفى هذه الجزيرة فانزل ترى ما يسرك ونزل الشاب الصالح مع صاحبه وتجولا فى أسواق المدينة وشوارعها حتى دخل به إلى طرق صغيرة ضيقة فانتهى بهما الطريق إلى بيت صغير فدخل الرجل البيت وطلب من الشاب أن ينتظره وقال : سآتيك بعد قليل ولكن ! إياك ! إياك أن تقترب من الدار. جلس الشاب بعيداً عن الباب يقطع الوقت قراءة وذكراً وفجأة إذا به يسمع قهقهة عالية ليفتح الباب وتخرج منه امرأة قد خلعت جلباب الحياء والمروءة .

أوّاه !! إنه الباب نفسه الذى دخل فيه الرجل وتحركت نفس الشاب فدنا من الباب ويصيح سمعه لما يدور فى البيت وإذا به يسمع صيحة أخرى فنظر من شق الباب ويتبع النظرة أختها لتتواصل النظرات منه وتتوالى وهو يرى شيئاً لم يألفه ولم يره من قبل ثم رجع إلى مكانه ولما خرج صاحبه بادره الشاب مستنكراً :ما هذا ؟ ويحك هذا أمر يغضب الله ولا يرضيه فقال الرجل: اسكت يا أعمى يا مغفل هذا أمر لا يعنيك قال الراوى : ورجعا إلى السفينة فى ساعة متأخرة من الليل وبقى الشاب ساهرا ليلته تلك مشتغل الفكر فيما رآه قد استحكم سهم الشيطان من قلبه وامتلكت النظرة زمام فؤاده فما إن بزغ الفجر وأصبح الصباح حتى كان أول نازل من السفينة وما فى باله إلا أن ينظر فقط ولا شىء غير أن ينظر وذهب إلى ذلك المكان فما إن نظر نظرته الأولى وأتبعها الثانية حتى فتح الباب وقضى اليوم كله هناك واليوم الذى بعده كذلك فافتقده ربان السفينة وسأل عنه :

أين المؤذن ؟ أين إمامنا فى الصلاة ؟ أين ذلك الشاب الصالح فلم يجبه من البحارة أحد فأمرهم أن يتفرقوا للبحث عنه فوصل إلى علم الربان من ذهب به إلى ذلك المكان فأحضره وزجره وقال له :

ألا تتقى الله ألا تخشى عقابه عجل اذهب فأحضره فذهب إليه مرة بعد مرة لكن دون جدوى فلم يكن من قائد السفينة إلا أن أمر عدة من الرجال أن يحضروه قسراً فسحبوه بالقوة وحملوه إلى السفينة .

قال الراوى : وأبحرت السفينة راجعة إلى البلاد ومضى البحارة إلى أعمالهم وأخذ ذلك الشاب فى زاوية من السفينة يبكى ويئن حتى لتكاد نياط قلبه أن تتقطع من شدة البكاء ويقدمون له الطعام ولا يأكل وبقى على حاله البائسة هذه بضعة أيام وفى ليلة من الليالى ازداد بكاؤه ونحيبه ولم يستطع أحد من أهل السفينة أن ينام فجاءه ربان السفينة وقال له:

يا هذا اتق الله ماذا أصابك لقد أقلقنا أنينك فما نستطيع أن ننام ويحك ما الذى بدل حالك؟ ويلك ما الذى دهاك ؟ فرد عليه الشاب وهو يتحسر : دعنى فإنك لا تدري ما الذى أصابنى ؟ فقال الربان :وما الذى أصابك ؟ عند ذلك كشف الشاب عن عورته وإذا الدود يتساقط من سوأته فانزعج ربان السفينة وارتعش لما رأى وقال: أعوذ بالله من هذا وقام عنه الربان وقبيل الفجر قام أهل السفينة على صيحة مدوية أيقظتهم وذهبوا إلى مصدرها فوجدوا ذلك الشاب قد مات وهو ممسك خشبة السفينة بأسنانه .استرجع القوم وسألوا الله حسن الختام وبقيت قصة هذا الشاب عبرة لمن يعتبر . « هذه القصة فى أول كتاب السهم المسموم» .

٢ـ وها هو شاب كان من العابثين يُحكى عنه أنه حصل له حادث مروع فى طريق مكة إلى جدة قال الراوى الذى حضر المشهد : فلما رأينا منظر السيارة ومشهدها الخارجى قلت أنا ومن معى من الإخوة : ننزل فننظر ما حال هذا الإنسان وكيف أصبح . فلما اقتربنا من الرجل وجدناه فى النزع الأخير من حياته ووجدنا مسجل السيارة مفتوحاً على أغانى غربية باطلة يقول: فأغلقنا المسجل ثم نظرنا إلى الرجل وما يعانيه من سكرات الموت فقلنا : هذه فرصة لعل الله عز وجل أن يجعل على أيدينا فلاح هذا الرجل فى دنياه وآخرته فأخذنا نقول له : يا هذا قل: لا إله إلا الله . أتدرى أخى بماذا تكلم فى آخر رمق من حياته ؟! ليته ما نطق لقد قال كلمة رهيبة عظيمة .

لقد قال : عياذا بالله تعالى من ذلك . قال بكلمته العامية : [يلعن دينك ودين دينك ما بدّى أصلى ولا بدى أصوم] ثم مات على هذه الحال. نعوذ بالله تعالى من الخذلان.

٣ـ قال أحد الفضلاء :

كنا فى رحلة دعوية إلى الأردن وفى ذات يوم وقد صلينا الجمعة فى أحد مساجد مدينة الزرقاء وكان معنا بعض طلبة العلم وعالم من الكويت وبينما ونحن جلوس فى المسجد وقد انصرف الناس إذا بقوم يدخلون باب المسجد بشكل غير طبيعى وهم يصيحون : أين الشيخ ؟! أين الشيخ ؟! وجاءوا إلى الشيخ الكويتى فقال له : يا شيخ عندنا شاب توفى صباح هذا اليوم عن طريق حادث مرورى وإننا عندما حفرنا قبره ووضعناه فيه إذا بنا نفاجأ بوجود ثعبان عظيم فى القبر ونحن الآن لم نضع الشاب وما ندرى كيف نتصرف ؟

يقول الراوى : فقام الشيخ وقمنا معه وذهبنا إلى المقبرة ونظرنا فى القبر فوجدنا فيه ثعباناً عظيماً قد التوى رأسه من الداخل وذنبه من الخارج وعينه بارزة يطالع الناس .

يقول الراوى : فقال الشيخ : دعوه واحفروا له مكاناً آخر يقول: فذهبنا إلى مكان آخر بعد القبر الأول بمائتين متر تقريباً فحفرناه وبينما نحن فى نهايته إذا بالثعبان يخرج فقال الشيخ : انظروا القبر الأول فذهبنا إلى الأول فإذا بالثعبان قد اخترق الأرض وخرج من القبر الأول مرة أخرى.

قال الشيخ : لو حفرنا ثالثاً ورابعاً سيخرج الثعبان فما لنا حيلة إلا أن نحاول إخراجه .

يقول الراوى: فجئنا بأسياخ وعصى فانحمل معنا وخرج من القبر وجلس على شفيره والناس كلهم ينظرون إليه وأصاب الناس ذعر وخوف حتى إن بعضهم حصل له إغماء فحملته سيارة الإسعاف .

وحضر رجال الأمن ومنعوا الاتصال بالقبر إلا عن طريق العلماء وذوى الميت . يقول الراوى : وبينما جىء بالجنازة وأدخلت القبر إذا بذلك الثعبان يتحرك حركة عظيمة ثار على أثرها الغبار ثم دخل من أسفل القبر فهرب الذين داخل القبر من شدة الخوف والتوى الثعبان على ذلك الميت بدأ من رجليه حتى وصل رأسه ثم اشتد عليه فحطمه . يقول الراوى : إنا كنا نسمع تحطيم عظامه كما تحطم حزمة الكراث .

يقول الراوى : ثم لما هدأت الغبرة وسكن الأمر جئنا لننظر فى القبر وإذا الحال كما هى عليه من تلوى ذلك الثعبان على الميت وما استطعنا أن نفعل شيئاً وقال الشيخ : اردموه . فدفناه ثم ذهبنا إلى والده فسألناه عن حال ابنه الشاب؟ فقال: إنه كان طيباً مطيعاً إلا أنه كان لا يصلى .نعود بالله تعالى من سوء الختام .

أخى فى الله :

إن هذه الحادثة المفجعة عبرة وعظة لأولئك المضيِّعين للصلوات أن يتولوا إلى الله تعالى من هذا العمل الشنيع قبل أن تتخطفهم يد المنون وقبل أن تقول نفس :

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) ﴾[الزمر] .

وتكون الإجابة الشافية الكافية :

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) ﴾[الزمر].

٤ـ قال الراوى : حدثنى أحدهم قال:

كنت مسافرًا فى الدراسة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وكان شأنى شأن كثير من الشباب الذين يقضون الليل فى الملهى والمرقص وذات يوم كنا آيبين من لهونا وعبثنا ونقدم بعضنا إلى الإسكان أما واحد منا فقد استبطأناه وقلنا: لعلة يأتى بعد سويعة ولم نزل ننتظره لكنه لم يأت فنزلنا نبحث عنه يميناً وشمالاً ثم قلنا أخيراً : لا بد أنه فى الموقف الذى يجعل للسيارة تحت البناء فدخلنا الموقف فوجدنا أن محرك

السيارة لا زال مشتغلاً وصاحبنا ساكن لا يتحرك والموسيقى لا زالت ترن منذ آخر الليل حتى اللحظة التى فتحنا فيها باب السيارة . فتحنا الباب وناديناه يا أخانا ، يا صاحبنا فإذا به قد انقطع عن الدنيا منذ اللحظة التى وقفت فيها سيارته فى ذلك الموقف وكانت هذه النهاية المحزنة لذلك الشاب قد اشتعلت فى قلوب الكثير من أولئك الشباب يقظة وتوبة وإنابة إلى الله تعالى فعادوا إلى الله تائبين وما شربوا بعدها وما فجروا بل استكانوا وأنابوا بفضل الله ثم بتدبرهم الحال صاحبهم الذى مات على معصية الله وكانت نهايته موعظة لمن يريد الاتعاظ وأما المفرط المضيع فهو بمعزل عن ذلك .

٥ـ وها هو شاب من أولئك المنحرفين الذين كانوا يسافرون إلى [بانكوك] للفسق والدعارة بينما كان فى سكره وغيه ينتظر خليلته وقد تأخرت عليه فما هى إلا لحظات حتى أقبلت عليه فلما رآها خر ساجدًا لها تعظيماً ولم ينهض من تلك السجدة الباطلة إلا وهو محمول على الأكتاف قد فارق الحياة فنعوذ بالله من سوء الخاتمة .

٦ـ وها هم أربعة من الشباب كانوا يعملون فى دائرة واحدة مضت عليهم سنين وهم يجمعون رواتبهم فإذا سمعوا ببلد يفعل الفجور طاروا إليها وبينما هم فى ذات يوم جالسين إذ سمعوا ببلاد لم يذهبوا إليها وعقدوا العزم أن يجمعوا رواتبهم هذه المرة ليسافروا إلى تلك البلاد التى حددوها وجاء وقت الرحلة وركبوا طيارتهم ومضوا إلى ما يريدون ومرَّ عليهم أكثر من أسبوع فى تلك البلاد وهم بين زنا وخمور وفعال لا ترضى الرحمن بينما هم فى ليلة من الليالى وفى ساعة متأخرة من الليل يجاهرون الله تعالى بالمعصية والفجور نعم بينما هم فى غمرة اللهو والمجون إذا بأحد الأربعة يسقط مغشياً عليه فيهرع إليه أصحابه الثلاثة فيقول له أحدهم فى تلك الليلة الحمراء يقوله له : يا أخى قل : لا إله إلا الله فيرد الشاب عياذاً بالله : إليك عنى زدنى كأس الخمر وتعالى يا فلانة .ثم فاضت روحه إلى الله وهو على تلك الحال السيئة .نسأل الله تعالى السلامة والعافية .

ثم كان حال الثلاثة الآخرين لما رأوا صاحبهم وما آل إليه أمره أنهم أخذوا يبكون وخرجوا من المرقص تائبين وجهزوا صاحبهم وعادوا به إلى بلاده محمولاً فى تابوت ولما وصلوا المطار فتحوا التابوت ليتأكدوا من جثته فلما نظروا إلى وجهه فإذا عليه كدرة وسواد . عياذاً بالله .

فاحذر أخى :

أن تكون خاتمتك على العصيان واستعد لما أمامك من الأهوال واعمل لدار طالما بكى لأجلها الصالحون وشمر لها المتقون لتكون من اللذين قال الله تعالى فيهم : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾ [آل عمران] .

٧ـ وها هو أحد الفضلاء يقول: حدثنى أحد الذين يدرسون فى معهد من المعاهد العلمية فى بلادنا يقول: أقسم بالله ثلاثاً وليس لى حاجة أن أكذب إننى كنت مريضاً فى أحد المستشفيات فأُتى بمريض بجانبى فى الغرفة التى كنت مطروحاً فيها على السرير .

يقول: وكان ذلك المريض أصفر اللون فإذا به فى اليوم التالى ينقلب لونه إلى الحنطى وفى اليوم الثالث يكون لونه كأمثالنا . يقول : فقلت لعله قد بدأ يتحسن ولكن للأسف جاء اليوم الرابع فإذا بلونه ينقلب إلى الأسود وفى اليوم الخامس يشتد سواده أكثر فأكثر .

يقول :فارتعدنا وخفنا من هذا الرجل وقد كنت أعرفه قبل ذلك كان ممن يتخلف عن الصلوات كان ممن يسافر خارج البلاد ويتعامل بالمخدرات ولا حول ولا قوة إلا بالله .

اقتربت منه وبدأت أقرأ عليه القرآن فإذ به تخرج منه روائح كريهة منتنة . عياذا بالله. يقول ولما بدأت أقرأ عليه القرآن شهق شهقة عظيمة فخفت وابتعدت فقال لى مريض آخر :واصل القراءة فقلت : والله لن أقرأ عليه .قال : اذهب إلى فلان فى الغرفة المجاورة وناده ليقرأ عليه فجاء هذا الشاب الآخر وبدأ يقرأ عليه.يقول :

فشهق شهقة أخرى عظيمة وما زال يواصل القراءة عليه حتى شهق للمرة الثالثة شهقة مخيفة . ثم طلبوا الطبيب فجاء.ووضع السماعة على صدره ثم قال: لقد مات .

نعم لقد مات وفارق الحياة وكانت له هذه الخاتمة السيئة لأنه كان مسيئاً فى جنب الله غير مراع لحدوده ومن كان على هذه الحال من الضياع والفساد فحقه أن يختم له بذلك جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد .

وقال الشيخ سلمان العودة :

وهناك قصة حدثنى بها بعض العاملين فى تلك البلاد [بانكوك] حين زرتها وهى أن رجلاً خليجيا يزيد عمره على ستين سنة جاء إلى تلك البلاد بلاد الإباحة والرذيلة والفساد واستأجر غرفة فى أحد الفنادق وأخذ يعب من الخمور عباً ففى اليوم الأول شرب ست قوارير ثم أتبعها بثلاث ثم لحقها باثنتين حتى شعر بالامتلاء وأحس بوضع غير طبيعى فذهب إلى دورة المياة لكى يتقيأ فسقط هناك .ولما طال المكث فيها طرقوا عليه الباب ثم فتحوه فوجدوا الرجل ميتاً فى أخس مكان وإذا برأسه فى مصرف المياة والنجاسات . « جلسة على الرصيف » ص ٦٢ .

وقصة أخرى حدثنى بها ثقة وهى أن صديقا له كان له أخ منحرف يعتقد بالعقائد الخبيثة الكفرية من عقائد العلمانيين والشيوعيين وغيرهم فكان أخوه يناصحه فلا يستجيب له فمرض ذلك المنحرف مرضاً شديداً أصيب بالسرطان ولزم الفراش فكان أخوه يأتيه ويتحدث إليه ويرجو هدايته لعل الله يختم له بخير .وفى أحد الأيام قال ذلك المريض لعل الله يكتب لأخى خاتمة سعادة .قال : فأتيت بالمصحف فلما رآه قال: هذا المصحف؟ قلت : نعم .قال: عن نفسه : إنه كافر بهذا المصحف ثم مات من لحظته والعياذ بالله . « نفس المرجع ص ٦٣ ، ٦٤ » .

وكتب محمود عبد الخالق السعداوى فى [مجلة] منار الإسلام [باب] سياحة قلم .وها هى نهاية فتاة الإسكندرية فمنذ أيام قليلة حدثت حادثة اهتز لها وجدان المجتمع السكندرى ففى إحدي سيارات النقل الداخلى [الميكروباص] كانت فتاة فى

العشرين من عمرها تركب السيارة وقد ارتدت ثياباً شفافة صارخة فى التبرج والفتنة وقد بالغت الفتاة فى إظهار مفاتنها مبالغة شديدة تجرح الحياء .

وكان فى المقعد الخلفى وراءها رجل عجوز ذو شيبة وقد أخجله منظر الفتاة المستهترة فقال لها هامسا فى أذنها بأدب جم : يا بنيتى !! كان من اللائق بك أن تسترى نفسك أفضل من ذلك فهذه الثياب الشفافة تغرى بك الذئاب والبشرية الضالة كما أنها تخدش الحياء وتثير الفتنة .

قالت الفتاة : وأنت مالك ؟ هل ستدخل معى فى قبرى ؟ هل فى يدك أن تدخلنى الجنة أو تدخلنى النار . . . إلخ ؟ وظلت الفتاة البلهاء تقرع الرجل حتى تمادت فى ذلك ثم زادت جرأتها ووقاحتها وقالت له بكل سخرية واستهزاء ها هو هاتفى المحمول خذه واتصل بالله كى يحجز لى غرفة فى جهنم وأطلقت الفتاة ضحكة عابثة مستكبرة مجلجلة .

ارتعب الرجل وانتفض من قولها ورد قائلاً : أستغفر الله العظيم . رب العرش العظيم . حسبى الله ونعم الوكيل .وكف الرجل عن الكلام تماماً وبدا أنه قد شعر بالندم والتسرع لأنه نصح هذه الفتاة اللاهية الجاهلة .

وبعد عشر دقائق . مضت فى سكون وصمت .صاح السائق وصلنا إلى المحطة استعدوا للنزول ونظر الجميع إلى الفتاة لكى تنزل وكانت بجوار باب السيارة ،فإذا بها ذهبت فى النوم فقال للرجل : أوقظها من النوم وعندما هزها الرجل قليلاً . اكتشف الجميع إلى المفاجأة . لقد أسلمت الروح إلى بارئها .

اهتزت مشاعر الركاب من هول الموقف وأخذوا يسترجعون .فالفتاة التى كانت تسخر من خالقها وتقول : ها هو الهاتف المحمول . . .اتصل بالله كى يحجز لى غرفة فى جهنم . . . قد رحلت إلى ربها .

سبحانك يا رب ما أجرأ هذا المخلوق المسكين الضعيف وتطاوله عليك. . . إن المدة الفاصلة بين الحياة والموت هى جزء من الثانية .فهذه الساخرة من ربها قد ختمت

حياتها بالسخرية من ربها .

عندما وقعت هذه الحادثة المليئة بالعبر تذكرت حديث النبى ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها ينزل بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » [رواه البخارى. كتاب الرقاق . باب حفظ اللسان ١١/٢٦٦] .

كما تذكرت قوله ﷺ . عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ :« إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفاً فى النار » . [مسند احمد ١٢/٢٠٤ . ط المعارف] .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « . . . وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوى بها فى جهنم » . [البخارى . كتاب الرقاق. باب حفظ اللسان ١١/٢٦٦ ـ ٢٦٧] .

حقاً صدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « إنما الأعمال بالخواتيم » .

[البخارى كتاب الرقاق . باب الأعمال بالخواتيم١١/٢٨٣] .

علامات حسن الخاتمة

وهذه هى بعض علامات حسن الخاتمة التى ذكرها النبى ﷺ فى أحاديثه الشريفة.

١ـ نطقة بالشهادة عند الموت :

لقوله ﷺ : « من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله دخل الجنة »

[رواه أبو داود (٣١١٦) والحاكم فى المستدرك ١/٣٥١، ٥٠٠ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ،صحيح الجامع (٦٤٧٩)] .

٢ـ الموت برشح الجبين :

لحديث بريدة بن الخطيب رضي الله عنه أنه كان بخراسان فعاد أخاً له وهو مريض فوجده بالموت وإذا هو بعرق جبينه فقال: الله أكبر !! سمعت رسول الله ﷺ يقولك « موت المؤمن بعرق الجبين » .

« صحيح الجامع (٩٦٦٦٥)،رواه أحمد والحاكم وصححه على شرط مسلم» .

٣ـ الموت ليلة الجمعة أو نهارها :

لقوله ﷺ : « ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر » « أخرجه أحمد والترمذى والألبانى فى أحكام الجنائز (ص ٣٥) ».

٤ـ الموت على عمل صالح :

لقوله ﷺ :« من قال : لا إله إلا الله ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة ومن صام يوماص ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة» .

« صحيح الترغيب ٩٧٢) وأخرجه أحمد (٥/٣٩١) عن حذيفة وإسناده صحيح » .

٥ـ الاستشهاد فى ساحة القتال :

لقوله ﷺ :« للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له فى أول دفعة من دمه ويرى مقعده من الجنة ويجار من عذاب القبر ويأمن الفزع الأكبر ويحلى حلية الإيمان ويزوج من الحور العين ويشفع فى سبعين إنساناً من أقاربه » . [صحيح الجامع ٥١٨٢] .

وترجى هذه الشهادة لمن سألها مخلصاً من قلبه ولو لم يتيسر له الاستشهاد فى المعركة لقوله ﷺ : « من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » . أخرجه مسلم والبيهقى عن أبى هريرة .

٦ـ الموت غازياً فى سبيل الله :

عن أبى مالك الأشعرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:« من فصَل - أى خرج - فى سبيل الله فمات أو قتل فهو شهيد أو وقصه فرسه أو بعيره - أى كسرت عنقه أو لدغته هامة أو مات على فراشه بأي حتف شاء الله فإنه شهيد وإن له الجنة» « صحيح الجامع ٦٤١٣ » « أخرجه أبو داود والحاكم والبيهقى » .

٧ـ الموت بالطاعون :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :« الطاعون شهادة لكل مسلم» رواه البخارى ومسلم .

وفيه أحاديث كثيرة عنه ﷺ غير هذا .

٨ ـ الموت بداء البطن :

وفى حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ :« من مات فى البطن - أى بداء البطن وهو الاستسقاء وانتفاخ البطن وقيل: هو الإسهال وقيل الذى يشتكى بطنه - فهو شهيد » . « رواه مسلم وأحمد» .

٩ ، ١٠ ـ الموت بالغرق والهدم :

لقوله ﷺ: « الشهداء خمسة : المطعون والمبطون والغرق وصاحب الهدم

والشهيد فى سبيل الله » . « رواه البخارى ومسلم » .

١١ ، ١٢ ، ١٣ ـ موت المرأة فى نفاسها بسبب ولدها والموت بالحرق وذات الجنب :

لحديث جابر بن عتيك عن النبى ﷺ :« الشهداء سبعة سوى القتل فى سبيل الله : المطعون شهيد والغرق شهيد وصاحب ذات الجنب شهيد والمبطون شهيد والحرق شهيد والذى يموت تحت الهدم شهيد والمرأة تموت بجمع ـ تموت وفى بطنها ولد ـ شهيدة » . « رواه مالك وأحمد وابن ماجه والنسائى والحاكم » .

١٤ـ الموت بداء السل :

لحديث راشد بن حبيش عن النبى ﷺ وفيه : « والسُّل » يعنى أنه شهادة ـ [المسند (٤٨٩١٣) واسناده صحيح .

١٥ ، ١٦ ، ١٧ـ الموت فى سبيل الدفاع عن المال المراد غصْبه أو الدفاع عن الدين والنفس :

لحديث سعيد بن زيد عن النبى ﷺ قال:« من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد» . « إسناده صحيح أخرجه أحمد فى المسند والنسائى وأبو داود والترمذى» .

١٨ـ الموت مرابطاً فى سبيل الله :

وصح من حديث سلمان عن رسول الله ﷺ قال : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمِنَ الفتان » . « رواه مسلم والنسائى والحاكم وأحمد وابن حبان والبيهقى والترمذى» .

أمثلة على حسن الخاتمة

هذه نماذج من وفيات السابقين إلى الرحمن تبين حسن الخاتمة :

فهذا سعد بن معاذ يقول عن جرحه الذى مات به : اللهم افجره أى شوقاً إليك فيهتز عرش الرحمن فرحاً بموته .

وهذا حنظلة بن أبى عامر يخرج للجهاد ويترك فراشه وزوجه ملبياً نداء رسول الله ﷺ فيصاب فتغسله الملائكة .

والربيع بن خثيم حليف الخوف والأحزان والأشجان تدخل عليه ابنته وهو فى السياق فتقول : وا كرب أبتاه . فيقول لها : بل قولى وا فرحاه وا طرباه .لقى أبى الخير .

وربعى بن حِراش الذى عاهد الله ألا يراه ضاحكاً فى دار الدنيا يبتسم على مغسلة . انتهت الدنيا بأحزانها وأقبلت الآخرة بسرورها .

ومحمد بن المنكدر الذى عرفته الليالى متهجدًا باكيا وكانت أمه تستعين عليه بأخيه عمر بن المنكدر وأبى حازم حتى يكف عن البكاء طوال الليل فلما جاءه الموت أتى صفوان بن سليم إليه فما زال يهوّن عليه الأمر وينجلى عن محمد حتى لكأن وجهه المصابيح ثم قال له محمد : لو ترى ما أنا فيه لقرّت عينك . ثم قضى رحمه الله . « الثبات عند الممات ص ١٤١ ، ١٤٢ » .

وهذا عامر بن عبد الله بن الزبير الإمام الربانى الذى اشترى نفسه من الله ست مرات يعنى يتصدق كل مرة بديته والذى قال فيه الإمام مالك : ربما انصرف عامر من العتمة فيعرض له الدعاء فلا يزال يدعوا إلى الفجر سمع المؤذن وهو يجود بنفسه فقال: خذوا بيدى فقيل : إنك عليل قال : أسمع داعى الله فلا أجيبه ؟ فأخذوا بيده فدخل مع الإمام فى المغرب فركع ركعة ثم مات . « انظر ترجمة عامر فى السير (٥/ ٢١٥ ـ ٢٢٠) » .

وشيخ الشافعية ابن الإسماعيلى : إسماعيل بن شيخ الإسلام أبى بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلى وكان إمام زمانه فى الفقه وأصوله مع الورع الثخين والمجاهدة والنصح للإسلام والسخاء وحسن الخلق .

توفى إكراماً من الله فى صلاة المغرب وهو يقرأ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ ففاضت نفسه . رحمه الله . [سير أعلام النبلاء (١٧ / ٨٧ ـ ٨٨)] .

وشيخ الإسلام الفقيه نصر المقدسى الشافعى . صاحب التصانيف والأمالى حكى عنه تلميذه الفقيه نصر الدين المصيصى أنه قبل موته بلحظه سمعه وهو يقول: يا سيدى أمهلونى أنا مأمور وأنتم مأمورون ثم سمعت المؤذن بالعصر فقلت يا سيدى المؤذن يؤذن فقال :أجلسنى فأجلسته فأحرم بالصلاة ووضع يده على الأخرى وصلى ثم توفى من ساعته رحمه الله . سير أعلام النبلاء (١٩/ ١٤٢ ـ ١٤٣) .

والإمام الزبيدى العابد الواعظ محمد بن يحيى بن على القرشى .

قال ابن عساكر : قال ولده إسماعيل . كان أبى فى كل يوم وليلة من أيام مرضه يقول : الله الله نحواً من خمسة عشر ألف مرة فما زال يقولها حتى طفئ . [سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣١٦ ـ ٣١٩)] .

والإمام الحافظ عبد الغنى المقدسى العابد الأثرى علم الحفاظ قال له ابنه أبو موسى فى مرض موته ما تشتهى ؟ فيقول : أشتهى الجنة . أشتهى رحمة الله لا يزيد على ذلك أشتهى النظر إلى وجه الله تعالى سبحانه . وجاء جماعة يعودنه فسلموا فرد عليهم وجعلوا يتحدثون فقال ما هذا ؟ اذكروا الله قولوا: لا إلا الله فلما قاموا جعل يذكر الله بشفته ويشير بعينيه فقمت لأناول رجلاً كتابا من جانب المسجد فرجعت وقد خرجت روحه . [سير أعلام النبلاء ترجمة الحافظ ٢١/ ٤٤٣ ـ ٤٧١].

وشيخ الإسلام حماد بن أبى سلمة قال عفان : قد رأيت من هو أعبد من حماد بن سلمة لكن ما رأيت أشد مواظبة على الخير وقراءة القرآن والعمل لله تعالى منه .

وقال موسى بن أبى إسماعيل التبوذكى : لو قلت لكم : إنى رأيت حماد بن سلمة ضاحكا لصدقت كان مشغولاً إما أن يحدث أو يقرأ أو يسبح أو يصلى قد قسم النهار على ذلك . قال يونس بن محمد المؤدب : مات حماد بن سلمة فى الصلاة فى المسجد . « سير اعلام النبلاء » [٧/ ٤٤٤ ـ ٤٥٦] .

والجنيد رحمه الله يقول الجريرى واصفاً وفاته : كنت واقفاً على رأس الجنيد في وقت وفاته وهو يقرأ القرآن فقلت له : ارفق بنفسك فقال لى : يا أبا محمد أرأيت أحداً أحوج إليه منى فى هذا الوقت وها أنا ذا تطوى صحيفتى وكان قد ختم القرآن الكريم ثم بدأ بالبقرة فقرأ سبعين آية ثم مات رحمه الله .

وشيخ الإسلام ابن قدامة : الذى لا يكاد يسمع دعاء إلا حفظه ودعا به يموت وهو عاقد على أصابعه يسبح « شذرات الذهب لابن عماد الحنبلى (٥/ ٢٨) » .

وعبد الله بن أبى السرح يموت وهو يصلى .

والإمام أبو الحسن على بن مسلم بن محمد الفقيه توفى وهو ساجد فى صلاة الفجر فى ذى القعدة سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة .طبقات الشافعية للسبكى (٤/ ٢٨٣) .

والإمام إبراهيم بن هانئ النيسابوري صاحب الإمام أحمد الذى قال الإمام أحمد لولده ،لست أطيق ما يطيق أبوك يعنى من العبادة « تاريخ بغداد (٦/ ٢٠٦)» .

والذى كان عرف بكثرة صومه انظر إلى خاتمته يرويها لنا أحد أصحابه : حضرت وفاة أبى إسحاق النيسابورى فجعل يقول لابنه إسحاق : يا إسحاق ارفع الستر. قال: يا أبت الستر مرفوع . قال: أنا عطشان . فجاءه بماء قال: غابت الشمس ؟ قال: لا . قال: فردّه ثم قال :﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات] . ثم خرجت روحه .[تاريخ بغداد (٦/ ٢٠٦)] .

أبو جعفر القارئ أحد الأئمة العشرة فى حروف القراءات واسمه يزيد بن القعقاع المدنى والذى قرأ عليه نافع وحدث عنه مالك بن أنس وكان يقرىء قبل وقعة الحرة والذى مسحت على رأسه أم سلمة ودعت له وكان يصلى خلف القراء فى رمضان يلقنهم يؤمر بذلك .

قال نافع : لما غُسِّل أبو جعفر نظروا ما بين نحره إلى فؤاده كورقة المصحف فما

شك من حضره أنه نور القرآن . سير أعلام النبلاء (٥/ ٨٧، ٢٨٨) .

وأسد الشام عبد الله اليونيني الذى كان دائم الذكر كثيره يحكى ابن كثير كيف كان موته فيقول : انصرف من الصلاة فقال للشيخ داود المؤذن وكان يغسل الموتى انظر كيف تكون غداً ثم صعد الشيخ إلى زاويته فبات يذكر الله تعالى تلك الليلة ويتذكر أصحابه ومن أحسن إليه ولو بأدنى شيء يدعو لهم فلما دخل وقت الصبح صلى بأصحابه ثم استذكر يذكر الله وفى يده سبحه جوزها ابن تيمية وللشيخ الألبانى كتيب فى أنه لا يصح فيها حديث وهو الأرجح فمات وهو كذلك جالس لم يسقط ولم تسقط السبحة من يده فلما انتهى الخبر إلى الملك الأمجد صاحب بعلبك فجاء إليه فعاينه كذلك فقال : لو بنينا عليه بنياناً هكذا يشاهد الناس منه آية فقل له : ليس هذا من السنة فنحي وكفنه وصلى عليه ودفن تحت اللوزة التى كان يجلس تحتها يذكر الله تعالى رحمه الله « البداية والنهاية (١٣ / ١٠١) » .

وانظر إلى حسن الخاتمة فيما يحكيه الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهرى فى تباريحه :

حدثنى أخى الشيخ محفوظ الشنقيطى مدير عام العلاقات بمجمع الملك فهد للمصحف الشريف عن شيخ القراء بالمجمع الشيخ عامر السيد عثمان رحمه الله تعالى أنه فقد جباله الصوتية فى السنوات السبع الأخيرة من حياته وكان يدرس تلاميذه القراءة فلا يفصح لهم إلا بشهيق وإيماء ثم مرض مرض الوفاة وكان طريح السرير الأبيض بالمستشفى ففوجئ أهل المستشفى بالرجل المريض فاقد الحبال الصوتية يقعد ويدندن بكلام الله بصوت جهوري جذاب مدة ثلاثة أيام ختم فيهم القراءة من سورة الفاتحة إلى سورة الناس ثم أسلم الروح إلى بارئها .

قال أبو عبد الرحمن : وكان خال أبى وابن عم جدى عمر بن محمد العقيل رحمهم الله مؤذناً بمسجدنا الحسينى خمسة وثلاثين عاماً أدركت منها ربع قرن لم يتخلف عن فرض واحد لحرّ أو قرّ ومات فى الرياض وعمره تسعون عاماً وكان مقعداً فلما حضرته الوفاة بعد صحوة الموت وجده ابنه محمد واقفاً بعد أن كان مقعداً يصدح بجمل الأذان : الله أكبر . . . إلخ . « المجلة العربية العدد ١٧١ص ٧٠ ـ ٧١ » .

عد إلى ربك فباب التوبة مفتوح

أخى الحبيب : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر] .

ويقول الرسول ﷺ : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » رواه مسلم.

وفى حديث صفوان بن عسال : أيضاً أنه ذكر بابا للتوبة مسيرة سبعين عاماً لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها » . صحيح رواه الترمذى .

وعن عبد الله بن عمر مرفوعاً : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » .
رواه أحمد والترمذى وابن ماجة صحيح الجامع (١٩٠٣) .

إذن . . . عجل يا أخى الحبيب عجل ما دام الباب مفتوحاً قبل أن تطلع الشمس من مغربها فلا تنفعك التوبة وما يدريك فلعلنا نعايش قرب الأشراط الكبري للساعة أو نحن على أبوابها ونحن لا ندرى فأقول لك : عجل التوبة أن تغرغر قبل أن تتردد الروح فى حلقك فحينئذ لا تقبل منك التوبة .

وعن أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»
رواه أحمد والترمذى وابن ماجة والحاكم صحيح الجامع (٤٥١٥) .

فيا أخى الحبيب . . . والله إنى لك محب وعليك مشفق ولك ناصح حاول أن تكون من التوابين كلنا خطاؤون فمن منا التوابون ؟

أخى : أقلع عن المعصية . . .تب إلى الله يتوب عليك . . اندم على ما فات باستقباح الذنب . . اعزم على ألا تعود .

أخى : إن الباب مفتوح والفرصة ما زالت سانحة وأمامك عطاء مقبول .

قل : تبت والله يقبل توبتك فاستعن بالله ولا تعجز فإن النصر مع الصبر

والفرج مع الكرب وإن بعد العسر يسرا وإياك من وسوسة الشيطان أن يقول لك : إنك لن تقدر على التوبة . . . فقل: إن شاء الله سأقدر عليها فمعى القوى المتين سيعيننى أحسن ظنك بالله وهو يعينك .

وانظر يا أخى إلى هذا الحديث العظيم الذى كان أبو إدريس الخولانى إذا حدث به جثا على ركبته والذى قال عنه الإمام أحمد بن حنبل « ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث » .

عن أبى ذر عن النبى ﷺ فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا . يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم .يا عباد كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم . يا عبادى كلمكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم . يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم. يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » . « رواه مسلم » .

انظر إلى كرمه : أبواب العباد مغلقة ومفاتيح الأبواب بيده وبابه مفتوح لمن دعاه. . . ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل: ٦٢] .

ياصاحب الخطايا أين الدموع الجارية يا أسير المعاصى إبك على الذنوب الماضية يا مبارزا بالقبائح أتصبر على الهاوية ؟! يا ناسياً لذنوبه والصحف للمنسى حاوية . أسفاً لك إذا جاءك الموت وما أنبت « أى ما رجعت » وا حسرة لك إذا دعيت إلى

التوبة فما أجبت . كيف تصنع إذا نودى بالرحيل وما تأهبت ؟! ألست الذى بارزت بالكبائر وما راقبت ؟!

قد مضى فى اللهو عمرى وتناهى فيه أمرى
شمر الأكياس وأنا واقف قد سيب (١) أمرى
بان ربح الناس دونى ولحينى بان خسرى
ليتنى أقبل وعظى ليتنى أسمع زجرى
كل يوم أنا رهن بين آثامى ووزرى
ليت شعرى هل أرى لى همة فى فك أسرى
أو أُرى فى ثوب صدق قبل أن أنزل قبرى
ويح قلبى من تناسيه مقامى يوم حشرى
واشتغالى عن خطايا أثقلت والله ظهرى

أخى: اعلم أن التوبة ليست كلاماً .

إن التائب : منكسر القلب . غزير الدمعة .حى الوجدان .قلق الأحشاء. صادق العبارة . جَمّ المشاعر ـ جيَّاش الفؤاد ـ مشبوب الضمير خلي من العجب ـ فقير من الكبر ـ مقل من الدعاوى . بين الرجاء والخوف بين السلامة والعطب ـ بين النجاة والهلاك ـ فى قلبه حرقه ـ فى وجدانه لوعة ـ فى وجهه أسى ـ فى دمعه أسرار ـ يعرف معنى الهجر والوصال ـ يعرف معنى الوصال واللقاء ـ يفرق بين اللقاء والفراق بين الإقبال والإعراض مُجربٌ . . ذاق العذاب فى البعد عن الله وذاق النعيم حين اقترب من حب الله .

التائب : له فى كل واقعة عبرة إذا رأي جمعاً ذكر القيامة وإذا رأي مذنباً بكى

(١) أى اختلفت على .

عليه خوفا من ذنوبه وإذا رأي نعيماً خاف أن يحرم الجنة إذا رأي ناراً ظن أنه مواقعا .

التائب : إذا هدل الحمام بكى . وإذا صاح الطير ناح .وإذا شذا البلبل تذكر . . وإذا لمع البرق اهتز قلبه . خوفاً ممن يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته يجد للطاعة حلاوة ، يجد للعبادة طلاوة، يجد للإيمان طعما . يجد للإقبال لذة . يكتب من الدموع قصصا ـ وينظم من الآهات أبياتا ـ ويؤلف من البكاء خطابا ـ كالأم اختلس منها طفلها . . . ثم اختلست طفلها من يد الأعداء ـ أتدرى كم فرحتها ؟ أتقدر سعادتها ؟

التائب : كالغائص فى البحر . إذا نجا من اللجة إلى الشاطئ .بعد أن أيس من النجاة . كالعقيم بشر بالولد . كالرجل البارز للإعدام ثم عفى عنه .أعتق رقبته من أسر الهوى . أطلق من سجن المعصية .فك روحه من شباك الجريمة ـ أخرج نفسه من كير الخطيئة .

لو رأيت التائب . . لرأيت جفناً مقروحاً .تبصره فى الأسحار على باب الاعتذار مطروحاً .سمع قول الإله فيما يوحى ﴿ **تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا** ﴾ [التحريم:٨] مطعمه يسير وحزنه كثير ومزعجة مثير فكأنه أسير قد رمى مجروحاً أنحل بدنه الصيام وأتعب قدمه القيام حلف بالعزم على هجر المنام فبذل جسداً وروحا ﴿ **تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا** ﴾ .

الذل قد علاه والحزن قد وهاه . يذم نفسه على هواه وبهذا صار ممدوحا .أين من يبكى جنايات الشباب التى بها اسود الكتاب .أين من يأتى إلى الباب يجد الباب مفتوحاً . ﴿ **تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا** ﴾ .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة